





∞

تثاءب المساء والغيوم ما تزال / تسح ما تسح من دموعها الثقال... مطر.. مطر.. مطر، كما يقول "السياب"، في بغداد وباريس و"الإسكندرية"... مطر في الذهاب والإياب. مطر في البدايات والنهايات.

"مطر غزير، قد ألجأ الناس إلى مظلات المشارب والحوانيت، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو... ولم يبق في ميدان "الكوميدي فرانسيز" غير مياه تتدفق من الميازيب، وسيارات تخوض في شبه عباب..." توفيق الحكيم "عصفور من الشرق".

"وكانت نُذر الشتاء قد أتت متعجلة فهطل مطر غزير لم ينقطع بالليل والنهار واستمر لعدة أيام لكن أحدا لم يضج، والحركة لم تنقطع، والمحلات لم تُغلق، وأصوات الراديو لم تنخفض في المقاهي. لقد بدا للجميع أن السماء تغسل المدينة. لقد كانت السحب عالية وبيضاء وتلك كانت معجزة فمن أين حقا يأتي كل هذا المطر؟!" إبراهيم عبد المجيد "لا أحد ينام في الإسكندرية".

مطر... مطر... مطر.



الفصل الأوَّل

انطلقت بسيارتي شرقا على طريق "الكورنيش". كانت الرؤية شبه منعدمة بسبب هطول الأمطار الشديدة. لم تستطع المساحات إزاحة كل هذه المياه. كان صوت الرعد مخيفا وراح البرق يشرخ لوح الأفق البعيد كاشفا هنا وهناك عن عدد من السفن العاثرة التي تنتظر دخول الميناء. تُذكرني نوة "قاسم" تلك بشخصية "قاسم السماوي الكاريكاتيرية". نعم... فكلاهما حاقد وساخط وناقم.

أوقفت السيارة على عجل وهرعت أبحث عن أي بقعة مسقوفة أحتمي بها من وابل الأمطار والسيول الجارفة؛ ثم تسحبت إلى داخل البناية التي نقيم فيها. تقع شقة والدي في برج صغير المساحة نسبيا من أبراج شارع "البكباشي العيسوي". يُسمون هذه الكتل الخرسانية في "الإسكندرية" تندرا بـ "العمارات المضغوطة" لأنها تُشبه القرص الصلب في الحاسوب.

ولجت في المصعد وأغلقت بابه. ضغطت على زر الطابق الأخير وصدى كلمات أغنية "الدنيا ريشة في هوا" يتردد في ذهني. كانت آخر ما سمعت في مسجل السيارة فعلقت في أذني لبرهة. أخذ المصعد السقيم يخلخل الهواء في رحلته الشاقة عكس الجاذبية.

نظرت إلى مظلتي السوداء. كانت قطرات المطر ترشح وتتساقط منها على حذائي المتسخ. على حوائط المصعد، وضع أناس ملصقات من كل صوب وحدب: إحداها لمحل فطائر وآخر ينبه سكان العمارة إلى ضرورة عدم وضع القمامة في المصعد. يشير ملصق ثالث متآكل إلى محل صيانة غسالات وسخانات؛ وهناك أيضا هذا الملصق المزخرف والذي تقول كلماته "اشغل لحظات الانتظار بالاستغفار."

أطلقت زفرة أنين أو ربما استغاثة. لا أحب الانتظار ولا أستسيغه، لكنه يُفرض عليّ دائما. انتظر -في مجمل أيامي- المرأة الغائبة والفرحة التي تاهت مني؛ في عملي انتظر إفاقة المرضى وعودتهم إلى الوعي؛ وفي هذا المصعد انتظر العودة إلى "بيت الرعب".

لا أدري ما علة وجود مرآة في المصعد؟! هل من أجل أن يتأنق العائدون إلى الدور والزائرون لها؟ هل لخلق نوع من الفسحة المكانية لأن المصعد ضيق نوعا ما؟ هل لأن انطباع صورة المرء في المرآة قد تؤنس وحدته؟ أحب إطلاق الزفرات على هذا اللوح في الليالي الباردة ثم الكتابة عليه. أحيانا

أخرى أستعين به لفحص أسناني. أحب أيضا إخراج لساني أو تحريك حاجبي ومنخاري وشفتي أمامه بطريقة عبثية وبلهاء!

دأبت على مراجعة الكثير من أمور حياتي حين أكون حبيس المصعد أو دورة المياه. ارتدي عباءة الفلاسفة في هذا الصندوق المعدني العجيب. أتحول إلى "هاملت" في حيرته بين أن "نكون أو لا نكون".

يكتشف العديد من الناس أخطائهم داخل المصعد ويقرر آخرون ماذا يريدون بالضبط خاصة إذا تعطل بهم. حدث هذا في فيلم "بين السماء والأرض"، وفي "لديك بريد" حين أدرك "شارلي"، عامل المصعد البسيط أنه يريد أن يُمضي ما تبقى من عمره مع فتاته: "إذا قُدر لي أن أخرج من هنا فسوف أتزوج "أوريت=OREET" ، فأنا أحبها. لا أدري ما الذي منعني من القيام بذلك؟!"

كالعادة وصل المصعد وبقيت "سارحا في الملكوت" حتى سحبه أحد سكان العمارة. أفقت من شرودي فإذا بالمصعد يقف في الدور السابع. فتح الباب رجل أسمر يافع وزوجته شديدة البياض. كانا يشكلان معا رقعة شطرنج رشيقة أو حمار وحشي جميل.

كانت المرأة ترتدي معطفا أسود اللون و"كوفيه" حمراء تهدل عليها شعر بني فاحم ذو خيوط حريرية. رددت عليهما تحية المساء. أحسست أنهما آدم وحواء أثناء هبوطهما من الجنة؛ ومن ثم فلابد أن أكون أنا الشيطان الذي راح يتفرس في جمال المرأة الخلاب.

عدت للصعود مرة أخرى وأنا أتشمم عطر المرأة "الباريسي" الذي تفرزه غددها العرقية؛ ثم يخرج من مسامها ليعبق الأماكن برائحة الفتنة والاشتهاء. انتبهت جيدا حتى لا يتشتت ذهني مرة أخرى وأنا أردد في نفسي "من الجميل أن يكون لك شريكة تسكن إليها في هذه الحياة أو على الأقل في هذه الأيام الباردة؛ ما أقسى أن تعيش دون مؤنسة في هذه الدنيا المُبكية! لا أريد أن أمتنع عن النساء، أيا كان السبب: حصورا أو بتولا أو عنينا أو زاهدا أو حتى أغا؛ لا أريد أن أكون عيسى أو يحي أو الطبري أو ابن تيمية أو النووي أو الزمخشري."

حط المصعد في الطابق الثاني عشر فبادرت بفتحه. صعدت السلالم حتى الطابق الثالث عشر. يسمون شقتنا في مصر بـ"الدور المسروق" والذي يختلف عن "الدور المسحور" في الغرب.

الدور المسحور=ENTRESOL في الغرب هو الدور الثالث عشر والذي يُعطى أي رمز آخر، مثلا 12B، لا يتوقف المصعد في هذا الدور الذي يشكل مع الثاني عشر أو الرابع عشر "فيلات دوبلكس ميزانيين". لا يخفى على الكثيرين تشاؤم الأوروبيين والأمريكيين من هذا الرقم.

أما "الدور المسروق" في مصر فيشير إلى طابق يحتل الجزء الداخلي من سطح العمارة. ربما تعزو التسمية إلى أنه لا يُرى من الخارج أو بسبب أنه غير مرخص في الغالب؛ وبعبارة أخرى فقد تحايل صاحب العقار أو "سرقه" من الحكومة!

حين تنظر إلى الأرض من هذا الارتفاع الشاهق تُدرك أن الموت قريب جدا لا يحتاج سوى دفعة أو سقطة أو قفزة. تُبلور هذه الأبراج فكرة الانتحار في عقل الإنسان في لحظات ضعفه وانكساره تماما كالنسور التي تُلقي بنفسها من مكان مرتفع إذا اعتلت أو تقدمت في العمر أو فقدت الرغبة في الحياة.

يبدو أن أبي لم يتوفر معه المال حين ابتاع هذه الشقة. أخبرني أنه لم يكن مرتاحا لها فقد نشأ في "بيت عيلة" من طابق واحد في مصر العليا. يبدو أن أمي هي من صممت عليها لأنها ترى البحر من جميع الاتجاهات. وقعت أمي في غرام "المتوسط" لأنه ليس في كوكبها، أقصد في بلدها بحرا.

وضعت المفتاح النحاسي في "كالون" الشقة وأدرته فانفتح الباب بغتة مدفوعا بتيارات الهواء المتمردة اللاهية. رأيت شعاعا من سنا البرق ينطلق بسرعة الصاروخ إلى حيث توجد غرفتي النوم. عدت لـ "بيت الأشباح" إذن أو ربما "بيت الحاوي" حتى تكون العبارة مخففة!

لطالما شعرت بأن مخلوقا فضائيا يعيش معنا. وبما أن الشقة تقع في منطقة "ميامي" التي سُميت على اسم شاطئ "فلوريدا" الشهير، فربما كان هذا المخلوق من نوعية .E.T، حط بمركبته الفضائية أو طبقه الطائر على سطح العمارة ثم شق جدران مسكننا بإصبعه الذي يخرج منه الضوء. من المحتمل أيضا أن تكون شقتنا إحدى المحطات الفضائية التي تُدار فيها "حرب

النجوم"! إن موقعها فوق سطح العمارة وتفردها بالقبة السماوية يخلق هذا الجو ويترك هذا الشعور.

دلفت في الشقة وأوصدت الباب خلفي بصعوبة. تحسست بيدي الحائط بحثا عن ذر الكهرباء، لكني تسمرت مكاني حين وجدت صورة المرأة المتشحة بالسواد ترمقني. لطالما تحرشت بي هذه الصورة أو بالأحرى المرأة التي في الصورة فتارة تلهو في شعري وتارة تقرصني من أذني وتارة تشدني للخلف من ملابسي.

كان ضوء القمر الذي شق طريقه بصعوبة بين الغيوم مُسلطا على وجهها الجميل بشكل عجيب. شعرت أن المذنبات والشهب تنطلق حول وجهها كالألعاب النارية في احتفال بهيج. أطلقت عليها اسم "ميار".

تقبع الصورة على الحائط منذ ثلاثين سنة على الأرجح. ظننت أنها "ريبلكا" لرسام شهير، لكن أبي أكد لي أنها والدته. نفت أمي كل هذا. حين سألتها عن حقيقة الصورة ردت عليّ قائلة: "سأخبرك في الوقت المناسب."

وجدت على المنضدة قدحا من القهوة وتحته ورقة "جوكر" من "كوتشينة" عتيقة، والأرجح أنها مرسومة باليد. تحسست الكوب فوجدته دافئا. لم أندهش كثيرا. أمي كائن أفولي؛ يزداد نشاطها في المساء؛ كما أنها كائن شتوي يحب البرودة. أشعر في أحيان كثيرة أنها من ذوات الدماء الباردة البيضاء.

هممت بمناداتها، لكن قبل أن تنفرج شفتاي وجدتها تخرج من غرفة النوم وهي تتثاءب. كانت ترتدي ملابس فلكلورية لوسط أوروبا ملتصقة على خصرها الذي لا يتجاوز قطره ربع المتر: ثوب زاهي أحمر اللون وعليه مريول أبيض به ورود ألوانها بديعة وحذاء بني محروق طويل الرقبة وإكليل من الزهور المُجففة، ناهيك عن عُقُودٌ وأساور من الخرز وخواتم فضية عليها رسومات عجيبة. نعم... لقد عدت إلى صندوق الدنيا المعروف بـ "البيانولا".

- أمي... لقد أحضرت لك عصير "الدوم" الذي تحبينه.
- شكرا لك... هل نظفت مَزَارِيبُ السطح كما أخبرتك.
- نعم يا أمي. إنها تعمل بشكل طيب. لم يكن من الحكمة أن نسكن الطابق الأخير في مدينة ساحلية.
- حقا؟ ظننت أنك تحب الوحدة والعزلة عن الناس؟
- لم يكن هذا اختيارا.
- لا عليك. لكل من قوقعته.
- هل كنت نائمة؟!
- نعم.
- منذ متى؟!
- منذ فترة وجيزة.

- كم دقيقة تنامين في اليوم يا أمي؟ أشعر أنك تنامين واقفة مثل الخيول أو أنك تغلقين عين وتفتحين الأخرى مثل الدولفين أو أنك تنامين مثل الزراف.
- كم من الوقت تنام الزرافة؟
- تسع دقائق.
- ما الذي يجعلك تقول ذلك؟!
- أشعر أنه لا يغمض لك جفن.
- هذا غير صحيح.
- هل هذه قهوتك؟
- نعم... ولذلك أشعر بالقلق.
- وماذا تفعلين بجوكر الكوتشينة يا أمي؟!
- أحب النظر إليه.
- ولماذا تلبسين هذه الملابس.؟! وهل تنامين بهذا الحذاء؟!
- لقد كنت أرقص "الكازاردا=CSARDAS".
- بمفردك؟!
- تخطئ لو تظن أني بمفردي.
- مع أبي؟

- والدك لا يجيد الرقص.
- ماذا يُجيد إذن؟
- الصمت.
- نعم... ليس لديه شهوة الكلام.
- أو ربما التنفس.

تنهدت أمي تنهيدة طويلة، ثم اقتربت من صدري، وراحت تشم ملابسي وتوشوشني:

- هل أنت جائع؟
- قليلا... ماذا لديك؟
- "بابريكا=PAPRIKA".
- الرحمة يا أمي، ألا تجيدين غير هذه الوجبة الحارقة؟! أشك أنك هندية لا مجرية.
- أنا "هندية ومجرية وجركسية وأرمينية وبلغارية..." أنا حواء. ألا تعلم أن الأكل الحار مفيد للرجل؟
- لا فائدة من النقاش معك يا أمي.
- رائحتك بنج كالعادة؟!
- نعم... هل أجريت أي جراحة من قبل يا أمي تحت تأثير المخدر؟

- لم أنزف قطرة واحدة من الدماء.

وددت لو أسررت لأمي بهواجسي حول امتلاكها دورة دموية من عدمه. حين التحقت بكلية الطب حاولت مرارا قياس ضغطها وحرارة جسمها ونبضات قلبها كنوع من التمرين. جاءت كل قياساتها مختلفة وفي أحيان أخرى منعدمة. أحيانا يدق قلبها كالطفل وأحيانا أخرى كالحوت. أشك أن أمي من الثدييات أصلا. يتحدى جسمها أصول علم التشريح. كدت أترك كلية الطب بسببها.

- تقولين أنك لم تنزفي قطرة دم واحدة؟
- نعم، ولم أمرض قط تماما كسمكة القرش.
- أليس هذا غريبا يا أمي؟!
- إذا اعتنيت بنفسك فلن تمرض. ما وجه الغرابة في ذلك؟

وددت لو أخبرت أمي في هذه اللحظة وليست غيرها أنها غريبة. وددت لو أخبرتها أن أمورها كلها تثير العجب، لكن لساني انعقد. أردت أن أتلو على مسامعها قول ناجي "أي سر فيك؟ إني لست أدري / كل ما فيك من الأسرار يُغري (١)"



(١) إبراهيم ناجي، "الخريف".

الفصل الثَّاني

تمتلك أمي قدرات خارقة. صحيح أنها لا تأكل الزجاج ولا تمشي على النيران ولا تشد سيارة تبلغ طنين بأسنانها ولا تدفع المسامير في جلدها، لكنها تأتي بأمور غريبة: تقوم بأعمال البيت في وقت قياسي؛ لديها طاقة "كهروستاتيكية" هائلة يشعر بها كل من يقترب حثيثا منها؛ تقف على ساق واحدة لمدة طويلة تماما مثل "الفلامنجو"؛ تكتب بكلتا يديها وبلغتين مختلفتين في آن واحد...

نظرت إلى وجهها الجميل الذي يشبه وجه مريم فخر الدين؛ لا غرو في ذلك فأم الأخيرة مجرية أيضا؛ والإحصائيات تقول أن المجريات يتربعن على قمة الجمال في العالم بأسره.

- هل يمكن أن أكون قد رضعت من هاتين الرمانتين الصغيرتين يا أمي؟!

- لا ... لم يحدث.
- هل يمكن أن أكون قد مكثت تسعة أشهر في هذا البطن الضامر؟!
- ثمانية شهور فقط مثل الأيائل الحمراء.
- ليتني كنت وعلا أنعم بالحرية في الجبال.
- تستطيع أن تكون ما تريد.
- كيف؟!
- قل لي أولا: لماذا تشبه وجوه بعض النساء القطط؟
- فعلا... أعرف زميلة وجهها كالقطة تماما؟
- ذلك لأن بعض الناس قديما أرادوا أن يكونوا قططا أو صقورا أو قرودا.
- ما هذا التخريف يا أمي؟!
- تخريف! حسن لنغلق الموضوع إذن.
- لحظة يا أمي... أي الحيوانات كنت ستختارين؟
- اللبؤة.
- ماذا؟!
- اللبؤة.
- أرجوك لا تقولي ذلك يا أمي.

- لم؟!
- إن لها مفهوما سيئا في بلادنا.
- لا شأن لي بكم ولا بمفاهيمكم.

أحب الحياة البرية والبحرية. أحب الأسود والنمور والنوارس والقروش والتماسيح والخنافس... عالم على سجيته ليس به نفاق؛ الأبيض أبيض والأسود أسود. أجمل لحظات حياتي هي التي أجلس فيها أمام التلفاز لأشاهد هذه الحيوانات في بيئتها؛ وأسوء لحظات حياتي هي التي كنت أرى فيها الكائنات البائسة في حديقة الحيوان بـ"سموحة". لم أقتل حشرة في حياتي اللّٰهُمَّ إلا إذا حدث ذلك عن طريق الخطأ.

أمي هي من جعلتني أحب عالم الحيوان. أحضرت كراسات التلوين وجلست معي تنتقي ألوان الحيوانات. فزت بجائزة الجري في المدارس الإعدادية لأن أمي شجعتني أن أعدو مثل الفهود. حين كبرت شجعتني أمي على هذا الشعور النبيل المُسمى بالحب، وحثتني عن البحث الدءوب عن شريكة لحياتي والمثابرة حتى أجدها. قالت لي أن ذكر الذباب يطير مسافات خيالية ليحط فوق ظهر أنثى. قالت لي أن ذكور الحيوانات تتقاتل وترقص وتتلون وتتزين وتتفنن وتتعطر وتختال وتتجمل لتفوز بالأنثى.

- أمي... لم كففت عن تقبيل شفتي كما كنت تفعلين من قبل؟
- لقد كبرت على ذلك يا بني؛ وأريدك أن تكف عن مناداتي بأمي.

- وكيف أدعوك إذن؟!
- "تُندي=TÜNDE" ... "تُندي" وحسب. نحن أصدقاء، أليس كذلك؟
- بلى... أحبك يا "تُندي". أريدك أن تعرفي ذلك.
- الحب لا يُعبر عنه بالكلمات. الحب لا يخضع لمقاييس الحروف وأحكام المعاجم.
- أصبت يا "تُندي".

انهرت على أحد مقاعد الردهة وأنا أُطلق زفرة عميقة. لا أزعم أني أفهم هذا الشيء المسمى بالحب؛ ولا أعتقد أني سأجده وشيكا. لدي قلب ولا شك أن جسمي قادر على إفراز "هرمون" المحبين المُسمى بـ"الأوكسيتوسين"؛ فما هي المشكلة؛ وأين تلك الأنثى التي قُدر لي أن أحط فوق ظهرها؟ وإلى متى ستظل المرأة في حياتي ضميرا غائبا؟

حين كنت في المرحلة الأولى من الثانوية العامة قابلت فتاة في المراجعات النهائية بأحد مراكز الدروس الخصوصية. تعلق قلبي بها. كنت أختلس النظرات إليها حتى انطبع محياها في روحي وقلبي وعقلي وأوراقي وفراشي وجميع مفردات حياتي. أحببت مادة الكيمياء بعد طول جفاء بيننا لأني أقابل "ميار" في هذا اليوم. صدق "إيليا" حين قال: "إن نفسا لم يُشرق الحب فيها / هي نفس لا تدري ما معناها."

كانت جميلة ورقيقة ومهذبة ومتكلمة وبشوشة وضحوكة. اعتدنا بعد انتهاء الدرس السير على "الكورنيش" حتى أقرب نقطة لمنزلها. تحدثنا عن المستقبل والأيام المزهرة بالورود والآمال. سمعنا أغاني الحب وموسيقى "مونامور". كتبنا أسماءنا على الصخور وتعاهدنا أن يكون كلانا للآخر.

في عيد الحب أهديتها قلبا صغيرا من "الكريستال" الأحمر. أمسكت بيديها الدقيقة فأحسست بأني أنصهر بين كفيها. مع الهدية المتواضعة كتبت لها على بطاقة صغيرة كلمات "نزار" "لو تطلب البحر في عينيك أسكبه / أو تطلب الشمس في كفيك أرميها."

كانت "ميار" جد مختلفة؛ لذا لم تفلح في وصفها أو في مطارحتها الغرام العبارات التقليدية المهترئة من على شاكلة: "أحبك حتى الثمالة، وحبك في دمي، وأنت توأم روحي... الخ." لغة يأخذك إبدال حرف واحد فيها من "الجنس" إلى "السجن" ومن "الأمل" إلى "الألم" لا يمكن أن تصف حبيبتي. "ميار" هي "ميار" أو الإنسية التي سُميت بهذا الاسم، نقطة... نهاية الجملة ونهاية السطر ونهاية الصفحة ونهاية القصة.

ظهرت نتيجة الثانوية العامة. سارعت يومها فأدخلت رقم جلوس "ميار" على الموقع "الإلكتروني" البطيء كالسلحفاة فلم أجد بيانات لها. أعدت المحاولة مرة وأخرى، لكن الرسالة أكدت لي أن الرقم غير صحيح. اتصلت بها على المحمول. كان الرقم أيضا غير صحيح.

انطلقت نحو المنطقة التي تسكن فيها فلم أعثر لها على أثر. ذهبت إلى المركز الذي كنا ندرس فيه فاكتشفت أنها غير مدرجة بالقوائم. كدت أجن. حزنت حزنا شديدا لفقدها. بحثت عنها فيما بعد في مدرجات كلية الطب فلم أجدها. ظللت لفترة أذهب إلى "الكورنيش" حيث توجد حروفنا على الصخور وأبكي.

منذ هذه اللحظة وأنا أنتظر عودة "ميار". مضت أكثر من عشر سنوات وأنا أنتظر عودة الحب الضائع. لا بأس... لقد أمضى الكلب "هاتشيكو" عشر سنوات في محطة قطار باليابان ينتظر عودة صاحبه الذي سافر يوما ولم يعد، فلا اقل أن أنتظر أنا أيضا هذه المدة أو يزيد.

لكن ماذا إذا؟ نعم... ماذا إذا؟ لا... لا تقل أن "ميار" غير موجودة. لا تقل أن "ميار" هي "مي زيادة" التي ظل "جبران" يكتب لها رسائل حب لعشرين عاما دون أن يراها "فهم في البعد أحلى وهم في البعد أرقى وهم في البعد أغلى." لا يا "جبران"... ليس هذا زمن الحب النبيل والحب العذري والحب الأفلاطوني. "ميار" موجودة. أقسم لك أنها موجودة.

"ميار" هي "الأجنحة المتكسرة" و"رسائل الأحزان". هي تلك النبتة التي نمت في قلبي بين لحم ودم. هي تلك المعزوفة التي تأخذني للسحاب وثلوج الجبال. هي تلك الحالة من الخدر الذي يدغدغ أعصابي ويدلل إحساسي. هي التي من أجلها نحتوا كلمات العشق والغرام. هي التي من أجلها اشتقوا من الكلام نعوت وصفات.

"جميلة"... نعم، لكن ماذا يمكن لهذه الكلمة ذات الخمس حروف أن تفعل أمام حسنها الباهر وعذوبتها التي تقطر شهدا وحلاوة؟! "رقيقة"... نعم، لكن ماذا يمكن لهذه الكلمة أن تكشف عن لمساتها الملائكية وسحرها الفتان؟! قل ما شأت إذن وأعد ترتيب الحروف علك تصنع كلمات جديدة تفلح في وصفها.

عدت من أحلام اليقظة فإذا أمي جالسة أمامي مشدودة الظهر في الجهة المقابلة. كانت تتطلع إلى القمر عبر الشرفة وتغني:

WHEN SWOLLEN IS THE DANUBE
THEN IT DOTH OVERFLOW:
MY HEART, WITH LOVE REPLETE,
DOTH NOW FOR THEE JUST SO.

عندما يزيد "الدانوب"

وتفيض مياهه

يفيض قلبي بالحب

الذي أحمله إليك(١)

وعلى ذكر "الدانوب" قامت أمي من جلستها وتوجهت نحو المسجل الموجود في الردهة. أدارت اسطوانة عليها المقطوعات الرائعة "الدانوب الأزرق" لـ "يوهان شتراوس" و"الرقصة الهنجارية ٥" لـ "يوهانس برامس" و"السمفونية التاسعة" لـ "بيتهوفن"؛ ثم عادت إلى جلستها المستقيمة. لو أني فنان تشكيلي لرسمت لك يا أمي "بورتريه" أجمل من لوحة "أديل بلوكباور(٢)" لو أني نحات

لصنعت لك تمثالا أروع من تمثال "أفروديت". لو أني شاعر لكتبت لك قصائد أعذب من "سونتات شكسبير".

أحب نجمة الشمال وكوكب عطارد وشتاء "الإسكندرية" وعطلة نهاية الأسبوع والسباحة وصيد الأسماك ونادي الإتحاد السكندري ووقت الأصيل وشجرة "السبسابان" والياسمين البلدي وثمرة البرقوق والفول بالبيض والكنافة بالبندق وسمكة "البلاميطة" البلدي والقهوة باللبن وطائر الشحرور وموسيقى "عمر خيرت" وفيلم "الناصر صلاح الدين" وصوت "فيروز" وتمثيل "نيكول كيدمان" وسيارة "الكاميرو"...، لكن حبك يا أمي شيء آخر تهون من أجله الدنيا بما فيها ومن فيها. أنت الحركة يا أمي... أنت الثبات؛ أنت الاكتشاف يا أمي؛ أنت الدهشة. أنت اللهفة يا أمي؛ أنت النجاة؛ أنت لغز الألغاز وسر الأسرار وعلم اللوغاريتمات؛ أنت المحراب والهيكل وقدس الأقداس.



---

(١) من قصيدة THE ROSEBUSH TREMBLES للشاعر المجري: ALEXANDER PETOFI (١٨٢٣–١٨٤٩).

(٢) للفنان النمساوي "جوستاف كليميت"، ١٩٠٧.

الفصل الثَّالث

يراودني شعور أن أمي تمارس نوعا من أنواع السحر أو "فودو الطوطميات"، أشعر أن بإمكانها أن تكتب روايات عنه تفوق "هاري بوتر"، تقول أوراقها أنها مسيحية، لكني لم أرها طيلة حياتي تذهب إلى الكنيسة أو تذكر المسيح وأمه أو تصلي أو تصوم. أشعر أن بإمكانها أن تختزل كل ما قيل عن "الفانتازيا" والخيال العلمي.

تطلعت في وجهها الجميل وعينيها اللتين تتلونان كل لحظة بلون من ألوان قوس قزح. أحسست أن المجموعة الشمسية تدور في مقلتيها. أشعر أحيانا أن الشمس تشرق من عين أمي وتغيب في الأخرى. أشعر أحيانا أنهما كرتين من اللهب، أو أن براكين "مايون" و"إتنا" و"فيزوف" و"رينير" و"تال" و"فوجي" تنفجر كلها في عينيها. لدى "تُندي" عيني الأفغانية "شربات جولا=SHARBAT GULA" أو "فتاة زهرة الماء العذب" التي ظهرت على غلاف

مجلة "ناشيونال جيوجرافيك(١)" حين فحص العلماء عينيها وجدوا أثرا لستة ألوان!

تحافظ أمي على رشاقتها بشكل كبير. تهتم بجمالها أكثر من الإمبراطورة "بوبيا"، زوجة "نيرون". قيل أن الأخيرة كانت تستحم يوميا بلبن أربعمائة أتان حتى تحافظ على بياض بشرتها ونعومتها. أمي لا تأكل تقريبا إلا ما يسد رمقها. شعرها أحمر لم تجرأ شعرة بيضاء واحدة أن تعلن عن وجودها فيه. حاجبيها كالقمر في كسوفه الجزئي. رائحتها جميلة كالنرجس البري. ما أشبه أمي بـ "جينا لولو بريجيدا" وهي تؤدي دور "إزميرالدا" في رواية "أحدب نوتردام".

يخالطني إحساس أن أمي جنية. لطالما حكت لي وأنا بعد صغير عن الجنيات بعد أن تشد سيورا مطاطية على فراشي حتى لا يطيح الغطاء وأبقى دافئا. إذا كان الإنس والجن يتناكحون حقا فإن أبي لم يتزوج من أجنبية وحسب، بل من جنية أيضا. لابد وأن أمي هي "نداهة" المجر التي سحرت أبي.

يُقال أنه ولد لآدم أربعة ذكور، فأهبط الله إليهم أربعة من الحور العين، فزوج كل واحد منهم واحدة فتوالدوا، ثم إن الله رفعهن، وزوّج هؤلاء الأربعة أربعة من الجن فصار النسل فيهم، فما كان من حلم فمن آدم، وما كان من جمال فمن الحور العين، وما كان من قبح أو سوء خُلق فمن الجن. يُقال أن الأكراد حي من أحياء الجن كشف الله تعالى عنهم الغطاء.

يُقال أن بلقيس هي من نكاح الجن والإنس، وأن مؤخر قدميها كان مثل حافر الدابة وبه شعر. رآه سليمان الحكيم حين كشفت عن ساقيها. أمر لها بالنُّورَةُ(٢) فنزعوه حتى صارا كالفضة وتزوجها. يُروى أن رجلا أتى ابن عباس قائلا: "إن امرأتي استيقظت وكأن في فرجها شُعلة نار." فأجابه: "ذاك مِن وطء الجن." في مطلع سنة ١٦٠٠م قام أسقف "وورزبورج=WURZBURG" بحرق ٩٠٠ شخص، كان من ضمنهم تسعة عشر قسيسا وعدد من الأطفال اتهموا بأنهم مارسوا الجنس مع عفاريت.

ابتعت منذ عامين كتاب بدر الدين الشبلي عن الجن. توقفت طويلا أيضا أمام قصة الرجل الذي ركب البحر فانقلبت به السفينة ودفعه الموج إلى جزيرة أقام يأكل من أشجارها. بينما هو ذات ليلة إذ خرجت من البحر حوريات، فتعلق بشعر واحدة وشدها إلى شجرة، ثم وطئها. حملت المرأة منه بغلام، فلم يزل يربطها حتى فطمته. ما إن حلها حتى خرجت تعدو ملقية بنفسها في البحر.

أدركت حين قرأت هذه القصة أن أمي ستعود يوما إلى حيث خرجت وتترك الغلام. نعم... ربما ذهبت أمي يوما ما، لكني اشك أنها سترحل نهائيا. جلست في يوم من الأيام أشاهد فيلم "ماري منيب" عن كيد الحماة وأضحك. استاءت أمي من الفكرة برمتها. قالت لي أن الابن هو ملك لأمه؛ وأنه ما من أنثى تفرط في ابنها وأشياءها بسهولة.

أفقت من شرودي على وجه أمي المشرئب دوما نحو الشمال وهي تتمتم بالأهازيج المجرية. لها دقة حسن جميلة تتعامد مع أنفها المستقيم والذي ترتفع مقدمته قليلا. أذناها صغيرتان، لكنها تسمع دبيب النملة. خداها كتفاحة مشوبة بالحمرة انشطرت نصفين. شفتاها مكتظتان بالدماء وأسنانها متراصة على نحو بديع تُشبه إلى حد بعيد لفافات التبغ البيضاء في علبة السجائر الأجنبية التي راحت تفتحها الآن، ثم تُخرِج واحدة منها وتُشعلها وتنفث بدخانها في الهواء.

- توخي الحرص يا "تُندي" سيحرق عود الثقاب يدك.
- أنت مخطئ. لا يمكن أن يحدث هذا.
- لم لا تبتاعين قداحة؟
- أكره القداحات؛ وأحب أعواد الثقاب... هل تعلم أن المجريين هم من أهدوا العالم هذا الشيء؟
- تقصدين النار؟!
- لا... أعواد الثقاب.
- حقا؟! جميل... هاتفي أيضا مجري.
- والقلم الجاف الذي في جيبك.
- "تُندي"... دعك من أعواد الثقاب والأقلام؛ حدثيني عن هذه الأرقام التي تكونها أوراق اللعب تلك؟!

- أنا غجرية من البلاد الغريبة. أُمسك ورق اللعب في يدين مليئتين بالأسرار. أنظر متحدية في وجوه البشر. ما أدراهم أن كل ورقة عبارة عن مصير؟ ما أدراهم أن كل ورقة تسقط من يدي لها ألف معنى ومعنى؟(٣)
- هل تعني الأرقام الكثير لك يا أمي؟
- لي ولك وللعالم. ألم أُنشأك على حب الأرقام؟
- بلى... كانوا في المدرسة يلقبوني بـ "فيثاغورث" الصغير. كنت دائما سريع التعامل مع الأرقام. كان رفيقي في "التختة" يقول لي "يا بن الجنية!" كلما حللت مسألة صعبة في لمح البصر.
- كيف سمحت له أن ينعتك بذلك؟!
- هذه عبارة عفوية يقولها المصريون.

لماذا غضبت أمي؟! هل حقا أني "ابن جنية"؟! أحيانا أشعر بالخوف من مجرد التفكير في هذا الأمر. في أحيان أخرى أتمنى أن أتمتع بقدرات غير عادية فأخترق الحجب وأختفي عن الأنظار وأطير في الهواء وأعبر نطاقات الزمن وأقرأ خواطر الآخرين. آه لو امتلكت هذه القوة. لابد أن حياتي ستصبح أكثر إثارة وتشويقا.

- هل تذكرين يا "تُندي" حين كسرت شفرة بطاقات شحن الجوال عن طريق التباديل والتوافيق؟

- نعم.
- عنفني أبي كثيرا يومها.
- ذلك لأنك استخدمت موهبتك بأسلوب خاطئ.
- أجل، أحسبك تعرفين أنه بإمكاني حفظ أرقام الهواتف وإجراء العمليات المعقدة دون آلة حاسبة؟
- يسمون ذلك في الإنجليزية NUMBER-CRUNCHER.
- كم لغة تعرفين يا "تُندي"؟
- كثير... كثير جدا: حية وميتة.
- كنت أتمنى أن أواصل دراسة الرياضيات، لكن أبي كان له رأي آخر.
- أراد لك الخير... ها قد صرت أخصائيا مشهورا في الطب الحرج.
- صحيح يا "تُندي"، لكني أمكث أياما في غرف العناية المركزة لا أغادرها.
- كُف عن التبرم.
- حسن... هات كفك يا "تُندي"... هل أخبرتك عن الرقمين ١٨ و٨١ في كفوفنا؟!
- نعم.

- ما أجمل كفيك يا "تُندي"! أشعر بالرغبة في لعقهما.
- كف عن هذا الهراء.
- فعلت ذلك مرارا حين كنت تُطعميني.
- لم تعد صغيرا.
- أتدرين يا "تُندي"... هناك سورة في القرآن تُسمى "الحديد" عدد آياتها ٥٧ وهو نفسه الوزن الذري لخام الحديد.
- هناك أشياء متشابهة في العهدين: القديم والجديد.
- حقا؟!
- ما أكثر النظريات والتفاسير... الحقيقة لا تحتاج إلى كل هذا.
- هل طلب منك أبي مسبقا أن تتحولي للإسلام؟
- كلا.
- أنتِ كتابية؟!
- أنا كتابية ومجوسية وبوذية ودهرية وماسونية.
- وما هي أسباب ولعك بالأرقام.
- قلت لك أن الغجر يجيدون قراءة الطالع.
- أظنك قلت لي أن المجريين كلهم كانوا من الرُحل.
- نعم... هذا كان في البداية قبل أن يستوطنوا المدن.

- قال لي أبي أن كلمة "هناجرة" في مصر لها علاقة بـ "هنجاريا"، ولو أن لها معنى غير طيب.
- تقصد السرقة.
- أجل... هل غضبت يا "تُندي"؟
- البتة... عشت مع الغجر، وأدرك أنهم يأتون بأمور غير سوية. هل تعلم أن الرومان الشرقيين أحضروا أعدادا من غجر أوروبا GYPSY لمصر حتى سميت موطن الغجر EGYPT؟
- تردين الإهانة بذكاء يا "تُندي". هذه مجرد نظرية لم يثبت صحتها... لكن أخبريني عن حياتك معهم؟
- لم أعش بينهم طويلا. خرجت يوما أصطاد الفراشات فخطفني بعض الأشخاص وحملوني إلى "بودابست". نجحت في الهروب منهم وتسولت في شوارع العاصمة حتى أخذني رجل صالح إلى أحد الملاجئ تعلمت فيه الحياكة والقراءة والكتابة والحساب.
- هل تعلمين يا "تُندي" أن ملابسك تشبه ألوان الفراشات والطواويس؟!
- ألا تعلم أنت أني فراشة؟
- حسن... فراشة أفضل من لبؤة.

- أنا فراشة وسمكة ونحلة...
- حقا؟!... لم أكن أعلم ذلك.
- أنا الحياة



---

(١) عدد يونيو ١٩٨٥.

(٢) أخلاط من أَملاح الكالسيوم والباريون ، تستعمل لإزالة الشَّعْر.

(٣) من قصيدة للشاعرة الفنلندية "إديث سودرجران" EDITH DODERGRAN, 1892-1923، من ترجمة أ/ حميد كشكولي.

الفصل الرَّابع

أحب أمي كثيرا سواء كانت بومة أو نملة أو حتى أفعى. ما من شك في ذلك. أعشقها عشقا سرمديا. أسوء ما حدث لي في حياتي هو أني كبرت.

حين كنت صغيرا اعتدت التسلل لأنام بجوارها. أمتع أيام حياتي كانت عندما يُمضي أبي أياما في الصحراء الغربية يُجري أبحاثا عن الطاقة الشمسية وطاقة الرياح. خلال هذه الرحلات العلمية كنت أظفر بأمي. أحببت الاستحمام معها. لم تتحرج من خلع ملابسها أمامي؛ ولم أتحرج من التعري أمامها. لطالما حملتني وداعبتني وعانقتني وطبعت الورود من شفتيها على كل أجزاء جسمي.

عادة ما كنت أمسك بتنورتها دائما حتى أشعر بالأمان ومن شدة خوفي أن أفقدها. أحمد الله أنها ما زالت معي حتى الآن، لكنها حين كفت عن

ارتداء جواربها أمامي، ضاع مني الكنز تماما مثل "جودر" الصياد في "ألف ليلة وليلة".

- "تُندي"... هل أخلع لك الحذاء وأدلك أصابع قدميك؟
- لا... فقدماي دافئتان.
- رقبتك إذن؟
- لا.
- هل أمشط لك شعرك؟
- لا.
- هل أضع لك طلاء الأظافر الأحمر الذي تحبينه؟
- لا.

تقول أمي أنها ولِدت آخر مرة مع الثورة المجرية عام ١٩٥٦م، لكنها لم تفقد أبدا حيويتها ونعومتها وشبابها. أمي هي "الزئبق الأحمر" أو "أكسير الحياة". تقول أنها عاشت في أماكن كثيرة قبل أن تظهر في المجر. تقول أنها "برمائية" و"أنثوذكورية".

تقول أنها زَوَجت "إليزابيث الأولى" و"كاترين الثانية" في السر. تقول أنها اصطادت الأشباح في "برج لندن" و"قلعة أدنبرة" وقرية "بهانجرا" وعمارة "رشدي". تقول أنها هي من رصت الجماجم في كنيسة "سيدليك" ووضعت القائم الحديدي أعلى جبل خوفو وطهت الجز الأحمر في منخفض القطارة.

تقول أن دلتا النيل تتفرع من مبيضيها. تقول أنها هي من جعلت البحر الأحمر يصنع علامة النصر. تقول أنها هي التي تمنع قارة أمريكا الجنوبية من السقوط. تقول أنها هي من زرعت جذر شبه الجزيرة الهندية في المحيط.

تقول أنها كانت مع ملك المجر "أندرو الثاني" في حصار "المنصورة" أثناء الحملة الصليبية الخامسة. تقول أنها شهدت موت "راسبوتين". تقول أنها أُخذت سبية على يد المغول حين خربوا المجر وأنها ربطت مبيضيها بشعر حصان وأنها عشيقة "ديانا"، إلهة الصيد.

تقول أنها اختبأت في جراب "كنجارو" وسبحت في حمم أيسلندا ونامت تحت ثلوج سيبريا! تقول أنها هي من صنعت رسوم "نازكا" ونصفت مثلث برمودا وعزفت "الهارب" على خطوط الطول! تقول أنها عاشت في قارة "أطلانتس" وأنها من ضحايا "الهولوكوست" وأنها غيرت جلدها سبعين ألف مرة.

تقول أنها أم الإسكندر وأنها هي التي رقصت لـ "هيرودوس" ووضعت السم لسقراط! تقول أنها هي التي أضحكت "الموناليزا" وتسلقت جبل "ايفرست" وحكمت على "سيزيف" بالعذاب الأبدي. تقول أنها شاركت في تحنيط "مرنبتاح" وزينت المحظيات في "حرملك" السلطان "بايزيد" وقطعت الأشجار في غابات "الأمازون"!

تمتلك أمي خيالا خصبا عز أن تجده لدى أحد سواها؛ ورغم ذلك تُقسم بالأيمان المغلظة أن ما تقوله صحيح! لا بأس يا أمي. قولي ما شئت فأنا عبدك المتيم.

لطالما جعلتني أحلق في السماء وأهبط إلى الأراضين السبع وأغوص في البحار وأتسلق الجبال وأمتطي ظهور الخيول وأركب آلة الزمن وأختفي عن الأنظار وأظهر في عدة أماكن في توقيت واحد. نعم... فعلت أمي كل هذا وأكثر. جعلتني أخرق قوانين المادة والطاقة والمستحيل فقط بالكلمات والحكايات والأساطير. أجمل لحظات حياتي كانت تلك الدقائق التي تأخذني أمي في حضنها قبل نومي لتحكي لي عن العوالم التي لا يراها غيرها.

لأمي سحر عجيب؛ هذا السحر الذي جعلني أبكي حين تعين عليّ أن أفارقها لساعات أقضيها في المدرسة؛ هذا السحر الذي خلب لب أبي فتحدى العالم كله ليتزوجها. قاطعه أهله في الصعيد، لكنه لم يأبه لذلك. حارب الدنيا بأسرها من أجل أن يحتفظ بها. انتقلا للعيش في "الإسكندرية".

أراد أبي أن ينجب منها أطفالا كثيرين. قالت أنها لا تلد إلا مرة واحدة. جاء عمي ليزورنا بعد ست سنوات من ميلادي. طلب من أبي للمرة الأخيرة أن يطلقها، لكن أبي رفض من جديد. قال له أنه يحبها حبا جما، وأنها أم ولده. توجه عمي نحو باب الشقة غاضبا. طلبت منه أن يمكث معنا لبضع ساعات أخرى. رد عليّ بصعيدية قحة: "بعدين يا بن المجرية."

"ابن المجرية"، هذه هي الإشارة لمن يريد أن يُخرج أسوء ما في نفسي. اسمي الحقيقي "مصطفى". أعطاني أبي هذا الاسم لأنه كان يحب "مصطفى عبده"، لاعب الكرة في النادي الأهلي المُلقب بالـ "المجري"؛ والمجري لمن لا يعرف هو قطار فائق السرعة -بمنظور عصره- كان يسير بين "القاهرة" و"الإسكندرية"؛ والمجريون بوجه عام متقدمين في صناعة الشاحنات والمركبات والقطارات.

للأمانة لم تحب أمي الاسم كثيرا. كانت تدعوني "ماتياس"، وهو اسم أحد ملوك المجر المشهورين. يبدو أن "مصطفى" كان ثقيلا عليها في النطق، لكني أيضا لم أحب اسم "ماتياس". أما من منظور الكرة فإنها ترى أن "بوشكاش"، لاعب منتخب المجر كان أكثر تألقا ونجومية. عُدت بدفة الحديث إلى أمي قائلا:

- أخبريني يا "تُندي"؟
- بماذا؟
- كيف قابلت أبي؟
- لقد سردت على مسامعك هذه القصة من قبل.
- أريد أن اسمعها ثانية. لا أسأم من سماعها. إن كل مرة تحكيها لي تُزيدين عليها تفاصيل أكثر.

- ذلك لأنك تتقدم في العمر وتناسبك الآن التفاصيل التي لها علاقة بالعشق.
- كم أنا متعطش لهذا الشيء يا "تُندي".
- لا يكفي أن تكون متعطشا؛ لابد أن تبحث عن نصيبك منه وتأخذه وتزود عنه.
- يبدو أن نصيبي منه قليل.
- لا تقل ذلك.
- دعينا في قصتك أنت وأبي.
- حسن يا بني... قابلت والدك حين كان يدرس في "الأكاديمية المجرية للعلوم". تقع هذه البناية على ضفة نهر الدانوب في سفره نحو المصب بالبحر الأسود. كان وقتها يعيش في "بست" على الضفة الشرقية للنهر بينما كنت أعيش في جبال "بودا" على الضفة الغربية. وكما اتحدت المدينتين آنفا لتشكل العاصمة "بودابست"، فقد قابلت والدك وسط النهر أثناء رحلة بالقوارب على صفحته الهادئة فاتحد الشرق بالغرب.
- حسن يا "تُندي"... وبعد؟
- كنا في عيد الفصح. قبل نهاية الرحلة ناول الملاح كل شاب في المركب زجاجة ماء.

- لم؟
- ليرشها على الفتيات في القارب... هذا تقليد مجري في عيد الفصح.
- ثم؟
- وقف والدك حائرا والزجاجة في يده؟ أخذ ينظر إليّ نظرات غريبة.
- وبعد؟
- انتظرت أن يرشني بالماء ، لكنه لم يفعل. أدركت وقتها أنه ليس مجريا.
- مممم.
- اقتربت منه قائلة: "لماذا لا ترش الماء؟" أجاب بمجرية مكسرة "رش الماء عندنا عداوة". قلت له "عندكم؟... من أنتم... ومن أين جئت؟" قال "من مصر". خفق قلبي حين سمعت الاسم. من ذا الذي لا يعرف مصر ولا يحبها.
- حسن يا "تُندي"... وبعد؟
- ورثنا في المجر مجدا تليدا أيام "الإمبراطورية النمساوية -الهنجارية"، ورغم ذلك فقد كنت متيمة بالملكة "كليوباترا" ومفتونة بها.
- يقولون أنها كانت تمتلك قدرات عجيبة.
- تقصد مثل "جان دارك"؟

- أو "آن بولين".
- على أي حال إن سحر كليوباترا كان في شخصيتها وحسب.
- حسن يا "تُندي"... أكملي.
- شاهدت "إليزابيث تايلور" وهي تؤدي شخصيتها في الفيلم الشهير، فتمنيت أن أقترب من المكان الذي عاشت فيه؛ وحين عرض والدك علي الزواج والانتقال معه إلى مصر وافقت على الفور. اشترى لي خاتم بألفي "فورينت" فقط؛ كنت مستعدة للقبول بخاتم أقل من ذلك.
- لم تندمي على هذا القرار إذن؟
- البتة... حذرتني صديقتي "جولانتا" من الشرق، لكني لم أهابه. مكث "العثمانيون" في بلادنا قرن ونصف واتخذوا من المجريات جواري وإماء؛ لذا يعرف المجريون كيف يتعاملون مع الشرقيين. مصر، أو بالأحرى "الإسكندرية" بلد جميل، لكن يوم ما سوف أعود إلى "بودا" وحماماتها المعدنية الساخنة بشكل نهائي ودائم.
- وتتركيني يا أمي؟!
- "من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بزوجته."
- هذه أول مرة أسمعك تقتبسين من الإنجيل.

- حقا؟ ظننتك قلت لي هذه العبارة من قبل.
- لكن أين هذه الزوجة يا "تُندي"؟!
- "من يبحث يجد"... اقتباس آخر من الإنجيل.
- سأمت من البحث.
- نفسك قصير.
- حلمي كبير.
- لا يتوقف الإنسان عن البحث إلا عندما يتوقف قلبه عن الدق.
- لماذا امتنعت عن زيارة المجر طوال كل هذه السنين؟!
- من قال هذا؟! أنام كل يوم في المجر.
- ولماذا لم تأخذيني إلى هناك في عطلة من عطلات الصيف أو ما شابه؟!
- لم أشعر بالرغبة في ذلك. أتعلم؟... قطعت أمس تذكرة مفتوحة لمدة سنة إلى "بودابست".
- لثلاثتنا؟
- كلا... لي فقط.
- وأنا؟
- أنت مصري... لديك عملا يأخذ جُل وقتك.

- لا أستطيع العيش بدونك يا تُندي. ليس لي أصدقاء. أنت كل حياتي.
- ليس صحيح. حياتك ومستقبلك في يديك.
- وماذا عن أبي؟!
- ما اليوم؟
- الاثنين... لم تجاوبيني؟

امتنعت أمي عن التعليق. ولت شطرها نحو السماء من جديد وراحت تغني بالمجرية أغنية ذات إيقاع حزين. ما أجمل صوت أمي. يُشبه إلى حد كبير صوت "السيرينيات" في أسطورة "أوديسيوس".

UTOLSO VASARNAP KEDVESEM GYERE EL
PAP IS LESZ, KOPORSO, RAVATAL, GYASZLEPEL
AKKOR IS VIRAG VAR, VIRAG ES- KOPORSO
VIRAGOS FAK ALATT UTAM AZ UTOLSO
NYITVA LASZ SZEMEM HOGY MEG EGYSZER LASSALAK NE FELJ A SZEMEMTOL HOLTAN IS ALDALAK
THIS LAST SUNDAY, MY DARLING PLEASE COME TO ME
THERE'LL BE A PRIEST, A COFFIN, A CATAFALQUE AND A WINDING-SHEET
THERE'LL BE FLOWERS FOR YOU, FLOWERS AND A COFFIN
UNDER THE BLOSSOMING TREES IT WILL BE MY LAST JOURNEY
MY EYE WILL BE OPEN, SO THAT I COULD SEE YOU FOR A LAST TIME
DON'T BE AFRAID OF MY EYES, I'M BLESSING YOU EVEN IN MY DEATH…

أعرف هذه الأغنية. سمعت أمي تشدو بها قبل أن تُلقي جارتنا في الطابق الحادي عشر بنفسها من النافذة. اسم الأغنية هو "الأحد الكئيب=GLOOMY SUNDAY"، لكنها اشتهرت أيضا بـ"أغنية الانتحار". أول من صدح بها شاب مجري في العشرينات من القرن العشرين. كان ذلك في أحد المقاهي. انتحر الشاب بعدها مباشرة. بعد ذلك غنتها "أولجا كيركس" في أحد المسارح الشهيرة فأبكت الحاضرين. قبل الوصلة الثانية وجدوها منتحرة بالسم في غرفتها. يقال أن عشرين شخصا انتحروا بعد سماع هذه الأغنية؛ بينهم مؤلفها "لازلو يافور".

أتوسل إليك أيتها الغالية أن تحضري في الأحد الأخير.
هناك حيث القس والكفن والتابوت.
ستكون الورود في انتظارك.
النعش والزهور تحت الأشجار اليانعة.
هذه هي رحلة الوداع. سأفتح عيني لأشاهدك للمرة الأخيرة.
لا تفزعي من منظرها، فأنا أباركك حتى في الموت.

❀❀❀

الفصل الخامس

بعد أسبوع من حديثنا، رحل أبي في أجواء نوة "الفيضة" العنيفة التي لا تُغلق "البوغاز" وحسب، بل كل نافذة وباب وشرفة في "الإسكندرية". اقتلعت الرياح أعمدة الكهرباء التي تآكلت قواعدها واللافتات البائسة والأشجار المحنطة، وعربدت المياه في كل مكان بعد أن فشلت البالوعات المتهالكة في استيعابها. علقت أمي ببرود:

- كان والدك قبوريا؛ وكان يكره الشتاء.

أجبتها وأنا أفتح لها باب سيارتي البيضاء التي غطى الطين أكثر من نصفها:

- لم يعد بوسعه أن يحب أو يكره الآن.

خرج الجثمان بعد العصر من مستشفى "شرق المدينة". انطلقنا به نحو جبانة "أبي قير". لم يتوقف هطول الأمطار الغزيرة فاضُطررنا إلى إخراج النعش من سيارة الإسعاف خشية أن تُدركنا العتمة.

تطوع بعض الحاضرين ففتحوا مظلاتهم فوق الصندوق؛ وبالرغم من ذلك فقد تسربت بعض المياه إلى الكفن الذي ظهر فيه بقع حمراء. كان الكفن عبارة عن ملابس الإحرام: الرداء والإزار اللذين حج بهما واعتمر. كان من المقدر لأبي أن يُغسل مرتين: مرة بماء "زمزم" الذي أحضره من الحجاز واستبقاه لسنوات من أجل هذا الغرض ومرة بمياه المزن في أجمل مدينة على وجه البسيطة.

وقفنا نصلي الجنازة على عجل في ساحة المقابر التي تقع مباشرة على شاطئ البحر. صفعنا رزاز الأمواج العاتية التي راحت تنكسر على الصخور وتشق طريقها إلى الصف الأول من القبور. حملت المياه المتدفقة بعض "الكابوريا" التي جاهدت لتبقى في أماكنها.

سمعت أحد الحاضرين يقول أن المياه المالحة تذيب عظام الموتى في هذه الجبانة وتعود بها إلى البحر. أدركت الآن لماذا ابتاع أبي مقبرة في هذه المنطقة. لقد كان متيما بالبحر، وربما أراد أن يعود إليه فيشكل جزءا من دورة الطبيعة تماما كما ينثر "الهندوس" رماد الموتى فوق نهر "الجانج" ليأخذه إلى النباتات والأشجار والثمار.

لم تغادر أمي السيارة، ظلت تنظر من وراء زجاجها إلى جسد أبي وهو يُسجى إلى مثواه الأخير، وتهمس بأغنية "الأحد الأخير". كان المشهد برمته كئيبا وبدا كلوحة صوفية للطبيعة التي تقهرنا برياحها وغيومها وبُروقها ورعودها، وقبل هذا كله بالموت الذي يختبئ في مكان ما لينقض علينا فجأة فيسلب أجمل ما فينا ويتركنا جسدا مهملا بلا إرادة فكأننا لا عشنا ولا تنفسنا ولا حلمنا ولا سافرنا ولا قرأنا ولا.. ولا.. ولا.. أحسست بالمرارة تسري في حلقي، مرارة زاد من تأثيرها مياه البحر المالحة على شفتي والإيحاء الذي خلفه هذا الصبار المنتشر بين ثنايا القبور. نعم لقد مات أبي. نظرت إلى أمي قائلا:

- لا أريدك أن تموتي يا "تُندي".
- لا تقلق... أنا لا أعيش مرة واحدة.
- تقصدين مثل الهرة؟!
- نعم... أنا هي الإلهة "باستيت".

لم نستطع أن نمكث أكثر من ذلك بسبب الشتاء. وددت لو جلست على قبر أبي لبعض الوقت ريثما يألف المكان، لكن الجو كان غير مواتيا. عُدت بأمي إلى المنزل. دخل كل منا شرنقته وعاد إلى دورة حياته.

لم يعلم أهل أبي بموته ولم أسع إلى إخبارهم. لا أعرف لهم عنوانا، ولم أهتم بهذا الشيء. لقد ساومه عمي من قبل بين الزواج من بنت عمه وميراثه

من الأرض. قُضي الأمر على أي حال. القرابة ليست بالاسم أو بالدم فقط؛ القرابة أكبر من ذلك وأعمق.

شقشق صبح يوم من أيام الجمع ففوجئت بأمي تقول لي أنها تريد الذهاب لمطار "برج العرب". دق قلبي بشدة وابتدرتها قائلا:

- ألا يمكن أن تنتظري يومين حتى الأربعين؟!
- لست راحلة.
- إذن لماذا تريدين الذهاب إلى المطار؟!
- لنستقبل ابنتي.
- ابنتك؟!
- نعم.
- ما هذا العبث؟!
- هذه هي الحقيقة.
- ولماذا لم تظهر للنور إلا بعد وفاة أبي؟!
- لأنه اشترط عليّ في البداية ألا نُشير إلى زواجي السابق.
- وماذا جد الآن؟!
- لا شيء... لقد انفصلت عن خطيبها، فعرضت عليها أن تأتني إلينا لمدة أسبوع لتخرج من حالة الكآبة التي تعيش فيها.
- ألا يكفي ما نعيش فيه من كآبة؟!

- ليس من اللائق التحدث بهذا الشكل. الأمر كله لن يتجاوز الأسبوع.
- لكن كيف حدث هذا يا "تُندي"؟!
- تذكر الرجل الذي اصطحبني إلى الملجأ؟
- نعم.
- لقد عاد فأشرف على خروجي منه بعد بلوغي السن القانوني، واصطحبني لمنزله. عشت معه لبعض الوقت. كان الرجل مريضا وبحاجة للعلاج. عرض عليّ الزواج فوافقت ردا لجميله.
- شيء عجيب!
- لن أكف أبدا عن مفاجأتك.
- الرحمة يا أمي.
- المفاجآت هي ما تجعل الحياة مذهلة.
- أي حياة يا أمي؟! هل تسمين هذه حياة؟! أشعر أننا مجموعة من "الزومبي= ZOMBIES" أو "الفامبير=VAMPIRES".
- أنت وشأنك. ليس هذا إحساسي بها.
- وما اسم هذه الجنية الصغيرة؟ "باثوري=BATHORY"؟!
- ماذا قلت؟!

- لم أقل شيئا.
- قلت "باثوري".
- نعم.
- ماذا تعرف عن الكونتيسة "باثوري"؟
- لاشيء... فقط أردت الاستفسار عن اسم السيدة العزيزة.
- اسمها "برينا=BREENA"، وأمسك عليك لسانك.
- أفعل يا أمي.

كنا في أنواء "الشمس"، اسم على غير مسمى وملمح متناقض ككل شيء في مصر. أبت الشمس أن تخرج من مكمنها ذاك اليوم، لكنها أطلت علينا فجأة مشرقة وزاهية لا من السماء، لكن من صالة الوصول.

نعم... عندما شاهدت "برينا" وهي تدفع حقائبها عبر بوابة الجمارك أدركت على الفور أني في مأزق. لقد كانت فائقة الجمال، ولا سبيل لوصفها حتى لا يتبعثر مجد الكلمات على الأرض. بادرت بسؤال أمي عن إذا ما كانت مستوثقة من الحكاية التي سردتها على مسامعي؟ تمنيت أن تجيب بالنفي، وأن تخبرني أنها كانت تمزح، وأن كل ما قالته في الصباح كان محض اختلاق، لكنها لاذت بالصمت.

كان اللقاء جميلا. قدمتني أمي لـ"برينا" التي عانقتني وقبلتني. أحسست بقلبي ينفجر عندما لامس صدرها جسمي. انطلقنا نحو "الإسكندرية". كانت

"برينا" تتحدث الإنجليزية والألمانية بطلاقة. لم يبدو عليها الاكتئاب كما قالت أمي آنفا. أبدت إعجابا بالكورنيش. علقت أمي قائلة: "لقد أعددت لك برنامجا لمشاهدة الإسكندرية."

رتبت أمي لـ"برينا" مكانا للنوم بجوارها. أخبرتها "برينا" أنها تنام بمفردها منذ انفصالها عن صديقها، واختارت أريكة الردهة. لم ننم في هذه الليلة. ظللنا حتى الصباح نتحدث في أمور كثيرة.

انتهزت فرصة غياب أمي في غرفة الطهي فسألت "برينا" عن حقيقة صورة المرأة الجميلة المتشحة بالسواد. قالت أنها لممثلة مجرية هاجرت إلى الولايات المتحدة وعملت في "هوليود". صمتت برهة ثم أردفت:

- أظن اسمها.. "زازا جابور".

تحب "برينا" التمثيل كثيرا. لها تجربة سابقة في القيام بأحد الأدوار الثانوية في مسرحية "PARFUMERIE" للكاتب المجري "ميكلوس لازلو" أثناء دراستها الجامعية. آه... نسيت أن أذكر لكم أن "برينا" درست علم البيئة؛ وأن أحد الأماكن التي خططت لزيارتها في الإسكندرية هي محمية "العميد" التي تقع على مسافة حوالي ثمانين كيلومتر جنوب غرب الإسكندرية.

انطلقت إلى المستشفى دون أن يغمض لي جفن؛ وبدأت أمي و"برينا" جولتهما في "الإسكندرية". أمضيا معظم النهار بالخارج. اشترت "برينا" بعض الخمور، ناهيك عن الزجاجات التي جلبتها من السوق الحرة. كان أسوء ما في "برينا" أنها تُسرف في احتساء الخمر.

عندما عدت من المستشفى قبيل منتصف الليل كانت "برينا" تغض في النوم على الأريكة في الردهة. كان بالجو لسعة برد فحاولت إيقاظها لتنام في سريري، لكنها قاومت. كانت رائحة الخمر تفوح من فمها. دخلت غرفتي وأبدلت ملابسي وسرعان ما قفزت في فراشي. لقد كنت أيضا متعبا.

بعد فترة وجيزة قامت "برينا" مترنحة فدخلت دورة المياه لتلفظ بعض ما في معدتها، ثم عادت إلى الردهة لتشرب ما تبقى من زجاجة الخمر. بعد لحظات أحسست بـ "برينا" تنام بجواري. لم تكن ترتدي سوى بلوزة و"بانتي" وزوج من الجوارب كمعظم الغربيين.

تكورت "برينا" تحت الغطاء والتصقت بجسمي. أحسست بنعومة فخذيها العاريين. شعرت بأنفاسي تتلاحق وقلبي يُدق بشدة كقلب القنفذ. شعرت أنني أريد أن أصرخ وأن أنفجر. كانت مشاعري مضطربة. أُدرك أنها أختي، لكن إحساسي بها مختلف. يؤكد ذلك هذا الانتصاب الذي شعرت به.

وقال أمنون لتامار: "أدخلي الطعام إلى المخدع فآكل من يدك." فأخذت تامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع؛ وعندما قدمت له ليأكل، أمسكها وقال: "تعال اضطجعي معي يا أختي." فقالت له: "لا تغتصبني يا أخي، لأنه لا يُفعل هكذا في إسرائيل، فلا تفعل هذه الفاحشة، فأما أنا فأين أذهب بعاري؟ وأما أنت فتكون كواحد من الحمقى في إسرائيل." فأبى أن يسمع لكلامها، بل تمكن منها واغتصبها وضاجعها(1).

أحسست برغبة في اكتشاف جسد المرأة. لا يمكن أن تهبط فتاة في الثلاثين من عمرها فجأة في فراش شاب في الثامنة والعشرين عاش محروما من الجنس ثم تقول له إياك أن تلمسها لأنها أختك. الأخوة شيء مختلف، مشاعر تنمو مع العمر والعشرة.

شيطاني قوي... أعرف ذلك. أحسنت في تزيين الأمر لنفسي وتبريره لرغباتي فالتفت إليها ورحت أهصر نهديها الباسقين المتباعدين. كان طعمهما أجمل من اللبن "الجاموسي" في الشتاء. تحسست فخذيها ومؤخرتها وساقيها وشفتيها والتهمت كل جزء فيها، ثم قذفت بمني البائس في سروالي وعلى وجهي مشاعر متضاربة من السعادة والندم.

ما أجمل هذا الشعور المريح بعد أن تُخرج هذه الفضلة الزائدة من جسمك فيتحرر عقلك من التفكير الدائم في الشهوة والجنس! الاستمناء الفكري أشد وطأة من الاستمناء الجسدي. أنا كثير الاحتلام.

تأتيني في النوم نساء جميلات ومشهورات. أشعر بسعادة غامرة وأنا معهم. أشعر وكأن الأمر جد حقيقي. كل ما عليّ فعله هو التفكير في امرأة معينة لأجدها معي في الحلم. لو كان للدكتور "فاوست" عجلة الأحلام التي أمتلكها لما باع روحه للشيطان ليرى وينعم بـ "هيلين".

انتقلت للنوم في الردهة وأنا أغالب رغبتي في العودة لحضن "برينا". جلست على الأريكة للحظات وأنا أغير ملابسي الداخلية وسروالي المبلول في حسرة. نظرت على استحياء إلى المرأة صاحبة الصورة التي غدت كـ

"البطة البرية=WILD DUCK" في مسرحية "هنريك إبسن" الشهيرة، فكل من عاش في المنزل أو حتى زارنا رآها بشكل مختلف.

قررت درءا لتكرار ما وقع مني الليلة الفائتة أن أنام في المستشفى حتى موعد سفر "برينا". لا أدري هل علمت أمي بما حدث بيننا أم لا؟ لابد أنها عرفت. ليس لدي ذرة شك أنها كانت معنا في الغرفة. رأيت خيالات و"سيلوتات" على الحائط وشعرت بعيون كثيرة تشبه عيون القطط تشق ثنايا الحجرة الخافتة. بعدها بلحظات شعرت أن هذه العيون قد انقلبت إلى نجوم في القبة السماوية وأنني أنام مع "برينا" في العراء، في غابة مظلمة من غابات الأساطير.

على أي حال، لم يتعد الأمر زنا الحواس. كانت التجربة مفيدة بالنسبة لي بالرغم من كل المآخذ الأخلاقية عليها. لقد أدركت فجأة أهمية هذا الشيء المسمى بالجنس في حياتنا. وبما أن "ميار" قد قررت ألا تعود فقد حان الوقت ليكون لي فتاة مثل "برينا" أفضي إليها بشوقي.

أدركت أيضا أن لدي قوة تحكم لا بأس بها، لأني تنبهت إلى الفرق بين أن تعبث بجسد أختك وبين أن تضع المرود في المكحلة والقلم في المحبرة. الأول اسمه "اكتشاف، فضول، حب استطلاع" والثاني اسمه "زنا محارم"، ليس له اسم آخر اللَّهُمَّ إلا إذا كنت تؤمن بما جاء في الكتاب المقدس من قصص مخزية؛ أو أنك معجب بالإمبراطور الروماني "كاليجولا" الذي مارس الجنس مع ثلاثة من أخواته هن "جوليا وليفيليا ودروسيلا"؛ أو أنك تعيش في

مصر القديمة حيث تزوج "أوزوريس" من أخته "إيزيس" و"ست" من "نيفتيس" و"تحتمس" الثاني من "حتشبسوت" و"أخناتون" من "نفرتيتي" و"بطليموس" الثاني من "أرسينوس"؛ أو أنك انتقلت إلى جزر "هاواي" قديما حيث كانت العائلة تُقسم إلى ثلاثة أجيال: أجداد وأبناء وأحفاد؛ وأفراد كل جيل يتناكحون فيما بينهم على الملأ والمشاع.



(١) صموئيل: ١٣ (١٠-١٤).

الفصل السَّادس

عادت "برينا" إلى المجر، قبلتني وعانقتني في المطار بحميمية شديدة، أعربت لي عن أسفها لاحتلال فراشي في الليلة الأولى لها بـ"الإسكندرية"؛ لم أُعلق، احمر وجهي وذابت الكلمات في فمي، اكتفيت بالنظر في الأرض.

مدت برينا يدها الرقيقة فداعبت شعري البني. رفعت وجهي فالتقت نظراتنا. كان في عينيها كلاما كثيرا، لكن الوقت كان ضيقا جدا. نظرت للمرة الأخيرة في عينيها التي تشبه عيني "أسمهان" فوجدت نفسي أعوم في زرقة المتوسط وأركب أمواجه وأصعد الجبال وأنزل الوديان وأكتشف الصحاري وأسير على الثلوج وأطفأ حرائق الغابات. سألتني "برينا" قبل أن نفترق:

- لماذا لا يوجد لديك صديقة أو خطيبة؟!
- لم يحن الوقت بعد.
- اتخذ امرأة واعمل بنصيحة الأمريكيين COUPLE OR TROUBLE.

- وماذا عن خطيبك.
- نحن دائمي الشجار، ليست هذه المرة الأولى.
- هل تحبينه؟

لم تجاوبني "برينا". في طريق العودة للإسكندرية أخبرتني أمي أنها ستترك لي الشقة لأتزوج فيها وتعود للمجر. أخبرتني أيضا أنه يمكنني استبدال الأثاث كله إلا "نيش" صغير ستحتفظ فيه ببعض أوراقها وأغراضها. للحقيقة، لم أكن متابعا لما تقوله أمي بشكل تام. كان خيالي في الطائرة مع "برينا". نظرت إلى أمي قائلا:

- أتعلمين يا "تُندي" أن صديقتك "كليوباترا" تزوجت أخيها "بطليموس" الثالث عشر؟
- لقد قتل رجل ربع العالم ليتزوج من شقيقته.
- حقا؟! من هذا السفاح؟!
- "قابيل".
- تُسمى هذه الممارسات عندنا "زنا المحارم".
- كلنا نتاج هذا الشيء.
- تقصدين في بداية البشرية؟
- قالت امرأة لابنها: "أبوك أبي وجدك بعلي؛ أنت ابني وأنا أختك."
- ما هذا الكلام.

- من الكتاب المقدس[1]
- قرأت عن أرسطو أن حصانا رمي نفسه من ربوة عالية في واد سحيق نتيجة لشعوره بالخزي والعار بعد أن اكتشف أنه وقع في الخديعة ومارس الجنس مع أمه.
- حقا؟!

مارست الإمبراطورة الرومانية "أجريبينا=AGRIPPINA" الجنس مع ابنها ثمانين مرة بغية شفائه من الأرواح الشريرة التي تقمصته وأصابته بلوثة من الجنون فكان يتخيل أشياء غير حقيقية. نصحها أحد الأطباء بهذا الأمر؛ ولم يعترض الإمبراطور. لم يتماثل الابن للشفاء، بل أدمن ممارسة الجنس مع أمه التي تحولت إلى مومس لا تهدأ شهوتها إلا بعد أن يضاجعها ابنها عدة مرات تصل إلى ستة في اليوم. لم يبد الإمبراطور تبرما مما يحدث، بل كان في أغلب الأحيان يجلس ليتابع عملية الجماع والتي كانت تستثيره فيجامع زوجته مع ابنه!

أما في اليابان القديمة، مارست أم الإمبراطور "تستيوشان" الجنس معه حين أُصيب زوجها بالشلل تماما كما كان يحدث في الهند حين يتشارك الأخوة في مضاجعة زوجة أخيهم إذا ما حل به الضعف أو العجز الجنسي. تزوج رمسيس الثاني أكثر من بنت من بناته؛ كما أنجب الملك "سنفرو" "نفرت ماعت" من ابنته الكبرى "نفرت كاو". أما الإمبراطور "هرقل" فقد ضاجع ابنة أخته "مارتينا"!

بعد يومين، وفي "نبطشية" العناية المركزة والتي كانت خالية من الحالات في ظاهرة تحدث بنفس المعدل الذي يدور به كوكب "زحل" حول الشمس، أخذت ممرضة الوحدة في الغنج والتدلل بشكل مثير للأعصاب. راحت أحيانا تعض على شفتيها، وأحيانا أخرى تحرك كعبيها في الحذاء الخفيف صعودا وهبوطا. كانت جميلة وملفوفة القوام.

قلت في نفسي: "لا بأس ببعض التحرش في العمل، طالما أنه لا يوجد أحد سوانا في الغرفة." كانت النيابة العامة قد انتهت لتوها من التحقيق مع ممرض انتهك عذرية مريضة خضعت لجراحة؛ وكانت تحت تأثير المخدر. انقبض قلبي وقررت العدول عن الفكرة حفاظا على سمعتي. يقول المثل الإنجليزي "لا تتبول في المكان الذي تشرب منه".

يبدو أن الممرضة قد قرأت أفكاري فقررت زيادة الجرعة. فتحت زر معطفها العلوي فظهر الطود العظيم. حسمت أمري وقررت أن أعبره إلى أرض التيه والفيروز. اقتربت منها دون أن أنبس ببنت شفة متعمدا الاحتكاك بصدرها النافر.

فهمت الرسالة على الفور فأوصدت الباب وألبست كاميرا التصوير غطاء إحدى الوِساداتٌ. أخذت في تقبيلها. اتكأت بمرفقيها على إحدى الأسرة فعانقتها من الخلف بشهوانية. لم يستمر الأمر طويلا. قذفت بقوة كاتما رغبتي في الصياح. أحضرت منشفة طبية وراحت تجفف بقع المني من على بنطالها. نظرت إليّ قائلة بابتسامة خبيثة:

- سأحتفظ بهذا السروال كما فعلت "مونيكا لوينسكي" بالفستان الأزرق.
- لماذا؟!
- ربما استطعت ابتزازك يوما ما.
- بماذا؟!
- ممم... بعض المال، أو...
- لا داعي لأن تحتفظي بالسروال، ولا داعي للابتزاز... أنا أعرض عليك الزواج الآن.
- ماذا! هل أنت جاد يا دكتور "مصطفى"؟!
- نعم.
- لكن ماذا ستقول عني بعد ما حدث؟!
- سأقول أن كلانا شعر برغبة في الالتحام بالآخر تماما كما يحدث في سفن الفضاء.
- لكننا على الأرض، وأهل مصر لهم منطقهم.
- لا تخشين شيئا. هذا قراري وأنا مسئول عنه يا "دلال".
- جميل منك أنك تذكر اسمي.
- لك اسم على مسمى فكيف أنساه؟!

حين أذهب لشراء ملابسي أدخل أول محل أصادفه وأبتاع منه ما أريد. كرهت اللف وطول البحث بعد أن فقدت "ميار". لابد أن أعترف أن هذا الأمر يسبب لي مشاكل جمة. لا بد أن أعترف أن الزوجة ليست سروالا أو قميصا، لكن هذا ما حدث.

حين أخبرت أمي بالأمر رمقتني بنظرة أعرف معناها. لم تعلق كثيرا؛ ولم يظهر عليها علامات الفرح والارتياح. تعودت هذه الأمور منها. تحزن حين يتعين عليها أن تفرح وتبتهج حين يتعين عليها أن تبكي. وبمناسبة البكاء لم تذرف أمي دمعة واحدة على أبي. لا أدعي أنها لم تكن مكلومة، لكني رأيتها تشاهد أفلامها المفضلة "الرجل الخفاش" و"الرجل العنكبوت" في نفس يوم الوفاة.

على أي حال أمي ليست مصرية ولا يعنيها أمور كثيرة مثل الوضع الاجتماعي والحسب والنسب وهلم جره. الحقيقة الثابتة هي أنني أيضا بلا عائلة وفي حكم "المقطوع من شجرة". زد على ذلك أني اتفقت مع "دلال" على تقديم استقالة أو أجازة من العمل فدخلي جيد والحمد لله.

الشيء الوحيد الذي لم أقم به على خير وجه هو التحري والتقصي عن أفراد أسرتها بـ"بحري"، فقد تبين لي أن ابن عمها الذي يعمل مفتش تموين يأخذ عينات من المحلات بحجة التحليل ثم يستهلكها هو! أما بنت خالتها الوحيدة والتي لديها عضوية نادي كبير في "الإسكندرية" فإنها تعرض نفسها

للزواج من أشخاص لتمنحهم عضوية النادي مقابل مبالغ مالية كبيرة، ثم يحدث الطلاق عن طريق محامي!

لم أغير من الأثاث سوى غرفة النوم. رفعت كفاءة الحمام وقررت دهان الشقة. لم أشأ أن أزعج أمي كثيرا؛ وخشيت أن تتغير نفسيتها أو أن يتعكر مزاجها.

أتذكر بشكل خاص العامل الذي أحضرته لطلاء الشقة. حاول الرجل نزع صورة المرأة المتشحة بالسواد فوقع من فوق السلم على الأرض. لم يقترب من الصورة ثانية واكتفى بطلاء ما حولها وهو يقسم بالأيمان المغلظة أن المرأة التي في الصورة أخرجت له لسانها وغمزت له بعينيها ورفعت له حاجبيها! ما إن انتهى من مهمته حتى سارع بمغادرة المنزل دون حتى أن يعد نقوده. قال لي وهو على عتبة الباب:

- هذه الشقة مسكونة يا دكتور، ونصيحتي لك أن تبخرها أو تتركها.

تم كل شيء بسرعة ودخلت بـ "دلال" في فندق بالساحل الشمالي. طارت أمي إلى موطن رأسها بعد أكثر من ربع قرن كما أرادت. عادت الجنية إلى غابات المجر لتُمضي ما تبقى من عمرها بين الأشباح والمستذئبين والغيلان، أو هكذا تخيلت. أرسلت لي رسالة على الجوال من "بودابست" فيه رقم هاتفها النقال.

أمضينا أنا و"دلال" أسبوعا رائعا في الساحل الشمالي. أظهرت مهارات خارقة في الرقص وحرفية مذهلة في ممارسة الجنس الفموي. والمهبلي. في يوم الدخلة قبلتني حتى كدت أن أختنق وظلت تقلبني يمينا ويسارا على جنبي وأنا بداخلها. سحقت ضلوعي بضمتها وهزتها. لديها قدرة مذهلة على جعلي أقذف في اللحظة التي تريدها هي. تحديتها في هذا الشأن طويلا ولم أفلح مرة واحدة.

لديها مخزون لا ينضب من النكات والقصص القبيحة. تشير إلى الأعضاء الجنسية بالكلمات الصريحة. تفشي أسرار صديقاتها وتصف لي أدق تفاصيل أجسامهن.

أطلقت عليها سرا لقب "المكنسة الكهربية" ثم عدت فأسميتها "الشفاط" أو "المغناطيس" لما وجدت في التسمية الأولى من إساءة إليّ. معها أشعر بأني حشرة أطبقت عليها نبتة لتعصرها أو عنكبوت ليحللها. تحرق كميات هائلة من السعرات الحرارية أثناء الجماع. ربما هذا يُفسر سبب اشتهائها الدائم للطعام.

تستطيع تشكيل جسمها -رغم امتلاءه نسبيا- في حركات تعجز "نعيمة عاكف" عن القيام بها. تعشق الزوايا المنفرجة. تعطيك ليونة جسمها إحساسا بأنها من اللافقاريات؛ وأنها تستطيع أن تنفذ من أكثر الأماكن ضيقا كالإخطبوط وابن عرس. تنام وساقاها العاريتان يشكلان الرقم "ثمانية" فتظن

أن الهرم الأكبر يقبع بين فخذيها. استثمرت حبي للأرقام فأهلكتني وذبحتني في أوضاع الـ"69 و71 و99".

لم أشعر بأنها توجعت كثيرا أو تألمت حين غشيتها لأول مرة؛ ولم أعاين ولو نقطة واحدة أتباهى بها من دمائها . أثار هذا الأمر بعضا من شكوكي ومخاوفي. على أي حال... العذرية في القلب، لا في الفرج.

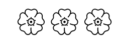
شعرت "دلال" بما دار في خلدي. ذكرتني بجوارنا في غرفة العناية، وأقنعتني أنها ستفعل أي شيء لتجعلني سعيدا. لا بأس... تعلمت منها أشياء كثيرة. لا يكفي أن تدرس في كلية الطب لتفهم كل شيء عن الجنس. اتفقنا أن لا نتكلم عن المرحلة التي سبقت زواجنا وأن ينصب اهتمامنا على المستقبل وحسب.

عدنا إلى "الإسكندرية"، ورجعت إلى عملي الذي تعرف "دلال" طبيعته، لذا فلم تتململ أو تتبرم من غيابي المتكرر. اتصلت بأمي يوما من "النبطشية" لأطمئن عليها. لم أندهش كثيرا حين وجدت رنة هاتفها على هيئة نعيق البوم.

سألتني "تُندي" عن صورة المرأة المتشحة بالسواد. أكدت لها أن الصورة موجودة كسابق عهدها؛ وأني نبهت "دلال" بألا تحركها من مكانها تحت أي ظرف من الظروف. بطبيعة الحال سألتني "دلال" عن الصورة فقلت لها أن والدي وجدها في الشقة حين اشترها من ثلاثين سنة؛ وأنه أحبها فقرر ألا يرفعها عن الحائط. علقت "دلال" قائلة:

- غريبة! يخلق من الشبه أربعين.

- كيف؟!
- إنها تُشبه زميلة قبطية كانت معي في معهد التمريض.
- حسن... وأين هي الآن؟
- قررت بعد التخرج أن تترك كل شي وأن تدخل دير "أبو سيفين" في "سيدي كرير".



(١) سفر الخروج ١٩ (٣١-٣٨).

الفصل السَّابع

عادت حياتي لسيرتها الأولى. أجلس بالساعات بجوار الحالات في العناية، ولا أفعل شيئا سوى النظر إليهم. ما أقسى الاعتلال، وما أقسى نظرة الانكسار في عيون المرضى!

أشعر بسعادة طائلة حين يبدأ بعضهم في التحرك؛ أسوء أيام عمري حين يرفض بعضهم أن يعود. منهم من يدخل في غيبوبة ومنهم من يغيبه الموت. أتحدث إليهم عن أمور كثيرة: عن الأحوال المتردية في بلادنا، عن مباريات كرة القدم ومسلسلات رمضان وصيد الأسماك، وربما أيضا حدثتهم عن "تُندي". لا أسأم من الكلام معهم. أشعر بوجودهم وأن بإمكانهم سماعي.

أتذكر بوجه خاص تلك الفتاة الجميلة "ملك". تناولت كمية كبيرة من الحبوب. قالوا أنها لم توفق في امتحانات الثانوية العامة؛ وتبين أن عمها يتحرش بها. جلست بجوارها بالساعات. أمسكت بيدها الباردة. حكيت لها عن "ميار". ضاعت مني منذ عقد مضى. لا أدري أين هي الآن؟ حين أفاقت "ملك" وعادت للحياة نظرت إلي قائلة:

- سمعت هذا الصوت يناديني! من أنت؟

حسن يا "ملك"... أنا هذا الشاب الذي... الذي... الذي لا يعرف كيف يُنهي جملته؟ كيف يحب أيامه؟ كيف يضحك؟ كيف يلهو؟ كيف يحيا؟ أنا هذا الصدع في الحائط الذي أمامك وذاك الشرخ في لوح الزجاج. أنا الجنين الذي تكلم في رحم أمه وأصابه الخرس حين أُجبر على تركه فشاخ قبل أن يولد. أنا الشاب الذي أطلق رصاصة الرحمة على رأسه لأنه لم يعرف كيف يُنهي الحكاية!

وعلى هذا المنوال سارت أيامي. أعود إلى البيت فأتناول طعامي في الردهة أمام التلفاز الذي تدمن "دلال" مشاهدته. أسترق النظر إلى "ميار" أو المرأة المتشحة بالسواد. ألقي عليها تحية المساء. أتذكر أمي التي أشعر بالحنين إليها. ينتهي يومي في الفراش مع "دلال" أحيانا وأحيانا كثيرة بدونها.

شيء ما ينقصني لا أدري ما هو؟! تسرب إحساس مبكر من الملل إلى حياتي الزوجية لا أدري ما سببه؟! هل هو تعجلي في الارتباط بـ "دلال"؟ هل

لأني صعب الإرضاء؟ هل السبب هو "دلال" نفسها التي فشلت في تجديد حياتنا وإضفاء نوع من الإثارة على ملابسها وتصفيفات شعرها؟

كان لدى "دلال" بعض المشاكل لم استطع التكيف معها، ولم أستطع الإفصاح بها حرصا على مشاعرها: صوتها مرتفع ومزعج؛ وتستخدم بعض الألفاظ السوقية الصادمة؛ تسمع أغاني هابطة؛ والمفارقة هي أنها تصدر عن نفس المسجل الذي طالما أدارت فيه "تُندي" موسيقى "شوبان" و "باخ".

تُسرف في تناول البصل. تأكل أشياء عجيبة: حرنكش ولحمة رأس ومخاصي... بيتها دائما متسخ. لا تغير ملاءات الفراش. رائحة عرقها لا تطاق. رائحة فمها كريهة. جسمها ملىء بالبثور. ترقق حاجبيها أمامي. تنظف أسنانها بأظافرها. لا تزيل شعر إبطيها وعانتها. لا تستحم قبل المضاجعة. تتكلم أثناء النوم ...

لم أشعر أن دلال تتلهف لرؤيتي أو لعودتي للمنزل. لم أشعر أنها مهتمة أن تعرف شيئا عن أحلامي وطموحاتي. لم أشعر أن بيننا جسورا قوية من التفاهم ونقط الالتقاء. مما زاد الطين بله هو أنها لم تسع إلى الخلف مني؛ ولم أشعر أن هذا الموضوع يؤرقها أو يمثل لها أي مشكلة.

في يوم من الأيام وبعد تسلمي "النبطشية" بفترة وجيزة اتصلت بي أمي. أرادت أن أرسل لها صورة عقد زواجها من أبي على وجه السرعة لغرض ما لا أعرفه. أخبرتني أنه موجود في "النيش" الخاص بها وأعطتني رقم الفاكس. سارعت فاتصلت بزميل لي في العناية. شرحت له الأمر ورجوته أن يأتي

لاستبدالي. فعلا أتى زميلي مشكورا فتركت له "النبطشية" وانطلقت بسيارتي إلى المنزل.

وضعت المفتاح النحاسي في "كالون" الباب وأدرته فأحسست بشعاع من سنا البرق ينطلق نحو قلب الشقة. كان صوت التلفاز عاليا كالعادة ويبث أغاني فجة مقيتة، لكن "دلال" لم تكن بالردهة. توقعت أنها في المطبخ. تركت باب الشقة مفتوحا وسرت نحو غرفتي كالسائرين نياما.

اقتربت من الحجرة وأن أسمع أصوات طقطقة وصرير وهمهمة وغمغمة. وجدت "دلال" تمتطي شيئا في فرجها وتعلو وتنزل عليه. كانت هائجة بشكل كبير. لم أرها في هذه الحالة من النشوة من قبل، ولا حتى معي. لم يبد منها سوى ظهرها الممشوق ومؤخرتها المكتنزة. يسمون هذا الوضع "قنديل البحر=JELLYFISH" لأن مؤخرة المرأة تترجرج مثل القنديل. عقدت الدهشة لساني ووقفت مذهولا!

تمنيت أن يكون ما تعتليه "دلال" آلة جنسية من النوعية التي تُثبت في الأرض أو ما عداها، لكن خاب ظني. لقد كان تحتها رجل تتأجج الشهوة بين أصابع قدميه التي راحت تعزف موسيقى الهوس. تصلبت في مكاني وأنا أنظر تحتهما إلى مفرش السرير الذي طرزته أمي بيدها؛ وشاهدت أبي أو تخيلته جالس في مكانه المعتاد على الفراش وبجواره عكازه بينما جلست أنا على الحصان الهزاز أركض أو أتخيل أني أركض وراء الأرانب!

أحسست أن "دلال" هي المرأة التي مثلت كل أفلام الجنس. أحسست أنها من ثبتت الرايات الحمراء عبر التاريخ. أحسست أنها قادمة من الحي الأحمر بـ "أمستردام". أحسست أنها هي من تسكعت في شوارع "عماد الدين" و"محمد علي" و"كلوت بك". أحسست أنها اختزلت تاريخ العاهرات والخائنات برمته. أحسست أن اسمها ولا غير سواه يحتل قاموس الكلمات البذيئة: عاهرة وداعرة وبائعة هوى ومومس وبغي وقوادة... أحسست أنها هي التي من أجلها وضعوا درس المرفوعات في اللغة والروافع في الفيزياء.

أحسست أنها المرأة التي تقول عنها موسوعة "جينس" أن ٩١٩ رجلا أولجوا أيورهم فيها في يوم واحد(١) أحسست أنها الوريثة الشرعية للإمبراطورة "ميسالينا"(٢) التي تحدت عاهرة في مسابقة للمضاجعة المتصلة. استمرت المسابقة التي جرت في القصر لمدة أربع وعشرين ساعة نامت فيها "ميسالينا" مع خمسة وعشرين فحلا حتى أُعلن فوزها بعد استسلام غريمتها.

لا شك أني تعجلت في الزواج من هذه المرأة. كان يجب أن أدرك ذلك منذ اليوم الذي عبثت فيه بجسمها في العناية. فشلت في أن تكون إنسانة محترمة. امرأة نزقة تُكري فرجها لمن يدفع أكثر. لا... لا ربما كان الرجل حبيبها، أقصد عشيقها؟! حسن... ما الفرق؟! وماذا ينقصها؟! لا أدري؟! أتراني لا امتلك ما لدى هذا الرجل؟!

لو أن "كامل الشناوي" كان معي على باب الغرفة لقدم اعتذارا عن أغنيته الشهيرة "لا تكذبي" لأن حبيبته أو أيا كان نعتها كانت أكثر عفة أو قل أقل قبحا. "عيناك في عينيه... في شفتيه... في كفيه... في قدميه ويداك ضارعتان... ترتعشان من لهف عليه." ليت الأمر انتهى عند هذا الحد، لكن الفارسة همزت الحصان ودنست الفراش.

توقفت "دلال" لحظة عن الهز والرهز لتعصب شعرها، فأمسك شريكها بثدييها وراح يجذبهما إليه. أراد الرجل أن يغير الوضع. أرهقه جسد "دلال" الممتلئ. قاما ليجددا نشوتهما بشكل مختلف ففوجئا بي أقف على عتبة باب الغرفة. لا تعليق...

انكمش قضيب الرجل في ثوان معدودة. نظر إلى "دلال" ولسان حاله يقول لها: "يا فاجرة... تخونينني مع زوجك!" نقل عيناه نحوي وكأنه يرد على "كامل الشناوي": "حبيبها... لست وحدك حبيبها... حبيبها أنا قبلك".

كان الرجل يرتدي الواقي الذكري. أردت أن اشكره لأنه يتبع إجراءات الجنس الآمن. أردت أيضا أن أعتذر له لأني قطعت عليه شهوته. يذكرني هذا بـ "ماري أنطوانيت" عندما داست خطئا على قدم السَّيَّاف وهي تتقدم نحو المقصلة فقالت له بأخلاق الملوك:

- المعذرة يا سيدي، لم أفعل ذلك عن قصد.

ارتدى الرجل ملابسه على عجل. وقف مذهولا من استسلامي الغريب وكأني أنا الذي استأجرته ليعاشر زوجتي في وجودي. انطلق وهو مرتاب نحو باب الشقة المفتوح على مصراعيه ثم هرول عدوا على السلالم غير مصدق أنه نجا.

ما الفائدة التي سأجنيها من قتله أو قتلها؟ السجن... وما الفائدة من فضيحتها وفضيحتي؟ من أين لي بأربع شهود؟! وماذا يمكن أن أفعل وأنا في الطابق الثالث عشر معلقا في السماء؟ ربما تراني سلبيا أو عديم النخوة، لكن هكذا هداني تفكيري. هذه معركة خاسرة.

تذكرني هذه الواقعة بأحد معارفنا رأى لصا يحاول سرقة إطار سيارته. صاح بالناس والجيران وتناول هراوة ونزل من البناية التي يسكن فيها إلى حيث صف سيارته. لم يستطع اللص بطبيعة الحال أن يكمل مهمته، لكنه اغتاظ من سب الرجل له، ناهيك عن أنه أفسد عليه خطته. كان معه سكينا حادا فقطع الإطارات الأربعة للسيارة وحطم زجاجها وانطلق مع زميله بالدراجة البخارية. قال لي الرجل معقبا: "لو أعلم هذا النهاية لتركته يسرق الإطار في صمت!"

أشاحت "دلال" بنظرها بعيدا عني وطأطأت رأسها. أحضرت دفتر وقلم ووقعت دون صخب على تنازل عن حقوقها. جمعت أغراضها وغادرت الشقة خفيضة الجبين لا تقوى على رفع عينيها عن الأرض. لم أتكلم معها كثيرا.

حمدت الله أنها لم تحمل مني. أخبرتها أن ورقة الطلاق ستصلها في أقرب وقت. "رفسة من فرس / تركت في جبيني شَجَا / وعلمت القلب أن يحترس"(٣)

وبالمناسبة لم أرسل لأمي صورة عقد الزواج الذي أخرجتني من المستشفى بسببه، ولم تتصل هي لتطلبه ثانية!! في المساء حلمت بتخاريف كثيرة: رأيت "دلال" تستحم مع عشيقها، الطرزان الأصلع في "البانيو" بينما وقفت أنا أتبول عليهما. رأيت العشيق يضع طرف الواقي في فم الصنبور حتى امتلأ بالمياه فزاد حجمه وانتفخ ثم انفجر فأغرقني ووقع الرجل على الأرض من الضحك. رأيت دودا يخرج من رحم "دلال" في مشهد أقرب لأنثى العقرب حين ينشق ظهرها فينزل منه ذريتها.

في اليوم الثاني رأيت كلبا أسود ينبح على قبر أبي ويحاول نبشه. رأيت أنثى العنكبوت، الأرملة السوداء، وهي تنقض على زوجها فتأكله. في اليوم الثالث رأيتني أمسك بقطعة مدببة من الحديد وأفقع بها عيون بعض الصبايا كما فعل بطل مسرحية "EQUUS"(٤) في اليوم الرابع رأيت يدا مُشعرة تعصر خصيتي حتى كدت أن أموت.

في اليوم الخامس رأيت رجلا يصرخ في أذني "بغل... بغل". استيقظت من النوم فزعا على سباب الرجل. ما هذه الصفاقة وقلة الحياء؟ من هذا الوقح الذي يصفني بالبغل؟! ولماذا البغل؟! وما هو البغل أساسا؟!

تقول الشبكة الدولية للمعلومات أن البغل هو هجين قوي ينتج من معاشرة الخيل للحمير. والبغال عقيمة لا يمكنها التناسل. تتصف البغال

بالعناد فيقال "عنيد كالبغل". وعندما يقسو عليها سائسها وهي سائرة في أعالي الجبال ترمي بحملها وتنتحر رامية بنفسها من فوق الجبل.

في اليوم السادس جاءتني "تُندي" في المنام. حكت لي أحدوثة الشابين "هانور وماجور=HUNOR & MAGOR" الذين خرجا من جبال الأورال في أثر ظبي أبيض اللون. قطعا مسافات طويلة خلفه إلى أن قادتهما الصدفة خلال هذه الرحلة إلى أميرتين جميلتين فتزوجا بهما.

في اليوم السابع ولدت من جديد.

وصلت الرسالة يا أمي. لا بأس... سأسافر... بحثا عن امرأة تخرج من رحمها مدينة... سواء كانت "هنجاريا" أو غيرها... هربا من الماضي أو بحثا عن الحب... لا أدري، لكني سأمضي.



---

(١) "ليزا سبراكس" LISA SPARXXX، عام ٢٠٠٤.

(٢) MESSALINA، ١٧–٤٨ بعد الميلاد، زوجة الإمبراطور "كلوديوس".

(٣) الأبيات لأمل دنقل من قصيدة "الجنوبي".

(٤) للبريطاني "بيتر شافر" PETTER SHAFFER .

الفصل الثَّامن

دخلت في الصباح على موقع الملحقية الثقافية السعودية في "القاهرة" وسجلت بياناتي، كما توجهت لأحد مكاتب إلحاق العمالة بالخارج وتركت نسخة ضوئية من مؤهلاتي. لم يكن لدي أدنى شك من أن العقود ستنهال عليّ. أعرف أن تخصصي هام ومطلوب. بالفعل جاءتني عروض متوازية من السعودية والكويت وعُمان. أخذت قرارا بأن أسافر إلى الدولة التي تصل تأشيرتها أولا. أردت أن أترك مساحة من الأمر للقدر.

أنهيت إجراءات الأجازة بدون راتب ووثقت شهاداتي وأودعت سيارتي أحد الجراجات. اتصلت بأمي لأخبرها بما حدث لي منذ طلاقي. لم تعلق كثيرا. تخيلتها أمام أحد البلورات السحرية الملونة، أو تمتطي مقشة وتطارد أحد الأشباح حتى غابات "بولونيا". أعددت حقيبتي وأغلقت الشقة وركبت المصعد وأنا أفكر في حالي وحياتي.

استعدت الطائرة للإقلاع مع دعاء السفر الذي انطلق عبر الشاشات الصغيرة المتدلية من السقف. كان واضحا أني متجه إلى بلد غني ومحافظ. بدا ذلك من نوع الطائرة وهيئة المضيفات المحجبات وأوراق الصحف فاخرة الطباعة والتي تكاد تخلو من وجه امرأة. قبل أن نهبط في مطار "الملك خالد" بـ "الرياض" تنقبت معظم النسوة. عندما بدت منهن العيون وحسب، زاد التطلع فيهن!

وقفت في صف الجوازات الطويل المخصص للقادمين لأول مرة ومعي بعض المصريين وكثير من الهنود والبنغال. كان أغلبهم يحمل تأشيرة "سائق خاص". تكثر هذه المهنة في المملكة بسبب عدم قيادة المرأة للسيارة وتكثر معها المشاكل. شاهدت على الإنترنت لقطات فيديو تُظهر مساخر لسعوديات. تنتشر ظاهرة العنوسة والطلاق في طول المملكة وعرضها بالرغم من التعدد الذي يعتبر حقا شرعيا أصيلا للرجل، وأحد المكونات الثقافية في المجتمع السعودي.

خارج المطار وجدت رجلا يقف بلافتة دُون عليها اسمي. تبين أنه يمني ويعمل في المستشفى الذي أقصده. كانت وجهتنا بلدة تُسمى "حريملاء" تقع على مسافة خمسة وثمانين كيلومتر تقريبا شمال غرب "الرياض" وتحيط بها الجبال من جميع الجوانب. سألت اليمني عن أسباب تسمية المدينة بهذه الاسم. أخبرني بأن التسمية تعود لنبات "الحرمل" الذي ينتشر في شعيب البلدة، لكن الناس يتندرون بأن التسمية تعني "حريم لا"، أي البلدة الخالية من

الحريم، أو البلد الذي لا تُرى فيه النساء! قلت في نفسي: "لا بأس، لقد كرهت النساء بعد ما رأيت من "دلال"، أو على الأقل في الوقت الراهن."

توفر المستشفى إقامة للمتزوجين من الأطباء فيما يُسمى في المملكة بسكن "العوائل". استأجرت بيتا صغيرا في البلدة. ليس من السهل على شخص قادم من مدينة كبيرة كـ "الإسكندرية" أن يتأقلم مع الحياة في مثل هذه البلدات الصغيرة التي تنام بعد العشاء.

هيئة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" نشطة جدا في هذه البلدة، ربما لأن الشيخ "محمد عبد الوهاب" مؤسس الحركة "الوهابية" خرج من هذه المنطقة. يعرف رجال الهيئة كل من يدخل البلدة أو يقيم بها. يحرمون بيع السجائر وخلوة الرجل بالمرأة في أي مكان وتشغيل مسجل السيارة وأشياء كثيرة من هذه القبيل. شعارهم حديث النبي "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن". على أي حال أحضرت معي مراجع وكتب وقررت أن استثمر الوقت في الاستعداد لدرجة الدكتوراه في طب الحالات الحرجة.

مع استلامي أول راتب فوجئت بأن زملائنا في المستشفى يجمعون مالا لطبيب تخدير سوري يُدعى "فراس" أُوقف راتبه من قبل الوزارة بسبب موت أحد السعوديين أثناء إجراء جراحة له. أقام والد الشاب المتوفى الدنيا ولم يقعدها، واشتكى المستشفى لوزارة الصحة التي بادرت بفتح تحقيق انتهى بتغريم طبيب التخدير السوري مائة وخمسين ألف ريال. علمت أن هذا

عرف شائع يدخل في باب الدية. من حسن حظ الطبيب أنه كان مشتركا في نظام تأمين يغطي نسبة كبيرة من الأخطاء المهنية.

مرت الأيام متشابهة. في يوم من الأيام المطيرة وجدت عقب صلاة الجمعة قطيطة سوداء تنازع الموت بالقرب من أحد الأرصفة وحولها بعض الصبية. قال لي أحدهم ممن تابعوا المشهد أن أمها حاولت أكلها وأنهم بالكاد استنقذوها منها. يقال أن القطة - حين تشعر بالخوف على وليدها أو ترى أن فرصة بقاءه على قيد الحياة ضعيفة - تلتهمه.

حملت القطة إلى المنزل وجففتها واشتريت لها حليبا مركزا. بدأت القطة في التعافي وأقبلت على الطعام. سرعان ما وقفت على أقدامها المرتعشة وبدأت في المشي. بعد شهر كانت "نجريس"، وهو الاسم الذي أطلقته عليها تقفز فوق الأرائك. ملأت عليّ وحدتي. كنت أتكلم معها وأحكي لها عن "تُندي" التي دأبت على الاتصال بها مؤخرا، لكن هاتفها ظل خارج نطاق الخدمة. أردت أن أقول لها أني افتقدها. أردت أن أغني لها مع فيروز:

أمي يا ملاكي يا حبي الباقي إلى الأ بد
ولا تزل يداك أرجوحتي ولا أزل ولد
يرنو إلى شهر و ينطوي ربيع
أمي و أنت زهر في عطره أضيع
وإذ أقول أمي أفتن بي أطير
يرف فوق همي جناح عندليب

استيقظت في الهزيع الثالث من الليل على رنة الهاتف المخصصة للرسائل. قمت فزعا فوجدت "نيجريس" تجلس أمامي وتنظر لي وكأنها حارس على مقبرة فرعونية. تسمرت أمام الرسالة التي تكونت من ثلاث كلمات وحسب، "توفى الدكتور فراس". فقدت تركيزي لثوان بسبب هول الصدمة. كان الرجل يحلم بالعودة إلى سوريا والمساهمة في تعميرها بعد الخراب الذي لحق بها. صلينا الظهر على الرجل ودفناه في مقبرة "حريملاء".

بعد أسبوع من وفاة الدكتور "فراس" زارني الدكتور "هشام" المصري والدكتور "نائل" الأردني والدكتور "رأفت" السوري. قدمت لهم واجب الضيافة وجلسوا يدللون "نيجريس". انطلق رأفت قائلا:

- دكتور "مصطفى"... لقد جئتك اليوم أخاطب فيك شهامة المصريين.
- خير يا دكتور؟
- تعرف كم نحب مصر، هذا البلد المبارك الذي حين أراد الله أن يتجلى لم يختر غيره؛ وأحسبك تعلم أن قلوبنا متوحدة بالرغم من انفصام عرى وحدتنا السياسية.

قاطع الدكتور هشام قائلا:

- ندعو لكم بالنصر... "ودمع لا يكفكف يا دمشق" كما قال شوقي.

دلف الدكتور رأفت في الموضوع مباشرة:

- استمع إليّ جيدا يا "مصطفى"... مات الدكتور "فراس" وامرأته على وشك الوضع.
- أعرف ذلك. أسر لي يوما بالمشاكل التي تواجهها أثناء الحمل. قال لي أن حملها غزلانيا. أخبرني أنه يرى علاقة بين حملها ومخاض سوريا، فكما أن الدماء التي نزفتها زوجته لم تؤثر على الثمرة، فإن الدماء التي سالت في سوريا سوف تؤتي أُكلها.
- تشبيه جميل!
- فعلا.
- ولدت أرملته اليوم طفلة جميلة أطلقت عليها اسم "إيميسا" كما أراد والدها.
- "إيميسا"؟
- نعم، تعني "حمص" باليونانية... وهنا مكمن المشكلة.
- لا أفهم؟!
- "فراس" وابنة عمه، زوجته، من "بابا عمرو".
- حسن... وبعد؟!
- أنت تعلم ما أصاب هذه المنطقة من خراب.

- نعم شاهدت ذلك في التلفاز. رأيت "فراس" يبكي يوما ما بكاء مرا لما أصابها.
- كان لديه عينا هتونا.
- أشهد... أراني صورة لمسجد "خالد بن الوليد". هدأت من روعه قائلا: "قريبا جدا تصلي فيه إن شاء الله."
- لقد قُتلت عائلتهما كلها تقريبا في القصف.
- معقولة؟!
- نعم... رفعنا طلبا للسلطات السعودية لمنح زوجة "فراس" الإقامة، لكن الأمر باء بالفشل.

أخذ "نائل" بتلابيب الحديث قائلا:

- لا يمكن أن تبقى المرأة طالما لا يوجد لها محرم.
- مشكلة.
- فعلا... عرض أحد السعوديين عليها الزواج.
- جميل. سمعت عن سوريات لاجئات تزوجن عندكم في الأردن وغيرها من البلاد.
- فعلا، لكن هذا السعودي هو ذاته والد الشاب الذي أُتهم "فراس" رحمه الله بقتله خطئا.

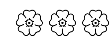
- آه.

عقب الدكتور رأفت:

- كما نقول في سورية "الحكاية ليست حكاية رمانة، بل قلوب ملآنة".
- بمعنى؟!
- بمعنى أن الرجل يُضمر شيئا... ربما أراد الانتقام مثلا... ورغم ذلك فقد عرضنا الأمر على زوجة المرحوم، لكنها رفضت.
- حسن... ماذا يمكنني أن أفعل أو أن أقدمه لكم؟!
- نريدك أن تتزوج من هذه الأرملة، ولك ثواب الستر.
- لقد قلت لتوك أنها رفضت الزواج؟
- الزواج من السعودي بسبب قصته مع زوجها الراحل.
- لقد فاجأتموني... والحقيقة أنا لا أفكر في الزواج.
- قال لي هشام أنك كنت متزوجا.
- صحيح... وهذا سبب عدم رغبتي في الزواج ثانية.
- نحن لا نريد أن نجبرك على شيء، لكنه عمل فيه خير وثواب. بمجرد أن تعقد عليها تحصل أم "إيميسا" على إقامة بالمملكة وبمجرد أن تُسجل مسكن المستشفى باسمك يصبح لها الحق في الاحتفاظ به. لن نرهقك ماديا... لا نريد أي شيء، ولا حتى ثمن الأكل والشرب

لأن المرأة لديها "شجمكية" ورثتها عن جدتها التركية، ناهيك عن مكافئة نهاية خدمة زوجها.

- لكن...
- أناشدك أن تفكر وتتخذ قرارك في أقرب وقت. قصدناك لأننا جميعا متزوجون وجيران للمرأة، ولأنك إنسان على خلق وصاحب نخوة لا ترضى المهانة لأحد.
- يفعل الله بنا ما يريد.
- بارك الله فيك يا "مصطفى"... تأكد أنك لن تندم على فعل الخير.



الفصل التَّاسع

تم كل شيء حسب ما خُطط له وبأقصى سرعة لأن المرأة بلا عدة. أصبحت الآن متزوجا للمرة الثانية، لكن مع إيقاف التنفيذ. عُدت إلى منزلي عقب إنهاء الإجراءات فلم أجد "نيجريس". كانت النوافذ مغلقة. أعدت البحث مرة ومرات داخل وخارج المنزل، لكن دون جدوى. يبدو أنها غافلتني حين كان عامل المطعم يوصل الوجبات التي أطلبها، فانطلقت إلى الخارج. حزنت حزنا شديدا لفراقها.

اليوم هو عيد الأم في مصر، لا في السعودية ولا في المجر. ابتعت منذ أسبوع بطاقة معايدة عبارة عن باقة من ورود "الأوركيد" التي تحبها أمي؛ ثم توجهت إلى مكتب البريد وأرسلتها على عنوانها في "بودابست". تمنيت لو استطعت أن أحمل ورودا حقيقية وأذهب بها إلى "تندي".

قرأت قصة مؤثرة عن هذا المعنى من قبل. توقف رجل عند محل لبيع الورود كي يرسل "بوكيه" لأمه التي تسكن على بعد ٣٥٠ كيلو متر. شاهد فتاة صغيرة تقف أمام المحل والدموع في عينيها. سألها: "لم أنت حزينة؟" أجابته: "أريد أن أشتري لأمي وردة، لكن ليس معي ثمنها." اشترى الرجل للفتاة الوردة؛ وعرض عليها أن يقلها حيث تريد. طلبت منه الوقوف عند مقبرة البلدة؛ ثم توجهت إلى شاهد أمها لتضع الوردة عليه. عاد الرجل إلى محل الورود، فأخذ الباقة وقطع المسافة لبيت والدته ليقول لها وجها لوجه: "كل عام وأنت بخير يا أمي".

في المساء، تلقيت مكالمة مرئية على موقع "سكايب". لقد كانت أمي. تذكرت أني أعطيتها بياناتي على "سكايب" فأضافتني. لم تتغير... صغيرة كما هي. كانت صورتها على الصفحة عبارة عن قطة سوداء شديدة الشبه بـ "نيجريس"؛ ولو لم أكن مخطئا، لقد كانت "نيجريس" بالفعل!!

شكرتني على بطاقة المعايدة. حكيت لها عن الأحداث الأخيرة المتلاحقة في حياتي. لم تفهم فكرة أن يتزوج المرء ويبقى بعيدا عن زوجته. للغربيين منطق مختلف في هذه الأمور.

على أي حال، تمنت لي السعادة. أخبرتني أن الإمبراطورة الرومانية "جوليا دومنا" خرجت من مدينة "حمص" في القرن الثاني الميلادي. لا أعرف من أين تأتي أمي بكل هذه المعلومات رغم أنها لم تذهب إلى الجامعة؟! سألتني عن اسم زوجتي السورية فقلت لها "نهيلة".

في يوم آخر أرسلت امرأة لي طلب إضافة. كان العلم على الصفحة يشير إلى أنها من أوغندا. أحسست بالرغبة في الحديث مع أي شخص. أقضي فترات طويلة في صمت دائم. الوحدة مع الغربة أمر لا يطاق. أنام والنور مضاء ربما من الخوف، وأغطي وجهي خوفا من جنيات أمي.

صُدمت حين طلبت مني الفتاة مائتين دولار. أخبرتها أني سأبعث لها المبلغ على رقم الحساب الذي أرسلته حين أتأكد أنها امرأة. فتحت الكاميرا فوجدت شاشة كاملة لفتاة بيضاء لعوب! طلبت منها أن ترفع يدها اليمنى. انكشف الملعوب. يُبث الفيديو من حاسوب محمول آخر أمام الكاميرا. غش وتدليس... شيء مقزز! اللعنة على كل نساء الأرض؛ كلهن عاهرات إلا أمي و"تندي".

فتحت صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي "الفيس بوك". وجدت طلبا لإضافتي كصديق. سرت قشعريرة في بدني. لقد كان الطلب من الدكتور "فراس"! أرسله لي منذ شهر قبيل وفاته. شلت المفاجأة تفكيري، لكني وجدت نفسي بتلقائية عجيبة أضغط "أوافق".

دخلت على صفحة "فراس" رحمه الله. رفع صورا لنهر "العاصي" ومعالم "حمص" الأبية، وصور لشهداء الثورة السورية في "دمشق وريفها وحماة وإدلب وحلب والرقة ودير الزور والحسكة ودرعا". وضع صور لـ "يوسف العظمة وعبد الرحمن الكواكبي وعز الدين القسام وشكيب أرسلان وسلطان الأطرش".

كان بصفحته أيضا بعض النكات عن الحمصيين وعن يوم الأربعاء الذي يقال أن الحماصنة يصيبهم الجنون فيه. بدا لي أنهم مثل الصعايدة في مصر. كان هناك أيضا بعض المشاركات والقصص.

استوقفتني قصة رجل كشف عن وجه زوجته ليلة الدخلة فوجدها سوداء وقبيحة. طال الصد، فلما استشعرت زوجته أنه ينفر منها ذهبت إليه قائلة "يا مالك... لعل الخير يكمن في الشر". دخل بها، لكن استمر في قلبه شعور بعدم الرضا فتركها وسافر. رجع مالك إلى المدينة بعد عشرين سنة فسمع أماما يلقى درسا مُبهرا. سأل عن اسمه، فقالوا "انس"، ابن رجل هجر المدينة من عشرين عاما اسمه مالك. ذهب إليه في منزله، وقال له "قل لأمك رجل بالباب يقول لك "لعل الخير يكمن في الشر."

أعجبتني القصة. فهمت منها شيئين: بعض الناس لا يطبقون الرؤية الشرعية، وامرأة "فراس" سوداء وقبيحة؛ ويبدو أنه كان يتندم على زواجه منها أو يصبر نفسه على عشرتها. قلت في نفسي: "لا بأس لم أكن أنتوي أن ألمسها على أي حال."

الحقيقة لقد اهتزت ثقتي في النساء بعدما شاهدت "دلال" تعتلي هذا الشاب الأصلع على فراشي. الحقيقة لقد فقدت أيضا الرغبة في الحب والجنس. فقدت هذا الإحساس الجميل حين كنت أسير مع "ميار" على الكورنيش وحين كنت أعبث بـ"برينا". نلت عقابي على أي حال.

عجيب حقا أن يتزوج رجل عام ٢٠١٢ بامرأة دون أن يراها، لكن هذه زيجة ذات ظروف خاصة. "عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم"، لكن أي خير يرجى من هذه الزوجة؟ يمكنني أن أطلق المرأة السورية حين تتحسن الأوضاع في بلادها، لكن الزواج بنية الطلاق أمر لا يجيزه الدين.

صحيح... لكن من الظلم أيضا أن لا يكون هناك سبيلا للخلاص والفكاك. قرأت أنه في بعض مناطق الصين تتم الخطبة دون أن يرى العروسان بعضهما. يقوم أهل العروس بتزيينها ثم وضعها في هودج مغلق ويحملوه إلى بيت العريس الذي يفتح الباب ليراها فإن أعجبته دخل بها وإلا يعيدها إلى قومها.

كان "مُطلِق"، السعودي الذي رفضته "نهيلة"، هامورا يستحل المال العام بشكل عجيب متذرعا بأنه بإمكان "آرامكو" أن تُشغل البريمة ربع ساعة مبكرا لتعوض الديون المعدومة. كان موسرا يمتلك بقاله كبيرة ومزرعة واستراحة؛ ورغم ذلك فقد كان بخيلا مقترا. نقوده في قلبه لا في جيبه.

يُخيل إليه أنه يستطيع أن يشتري كل شيء بماله حتى التكليف؛ فلأنه لا يطيق الصيام يُخرج كفارة؛ ولأنه لا يطيق السير حتى الشاهد ندب من رمى الجمرات عنه؛ ولأنه لا يحب إخراج الزكاة يُعطي العمال البنغال لديه رواتبهم منها. يُصلي جمع وقصر بوضوء واحد أو اثنين في اليوم! يدخل الصلاة مع الركوع ولا يسجد لله سجدة لا تحسب في عدد الركعات. لا يعرف من الدين

إلا مسبحة يحسب عليها أمواله وسواك يقضمه ولحية زائفة وجلباب قصير يكشف كعبيه المتشققين.

كان "مُطلِق" مغرما بالنساء، لكنه أيضا يعشق إذلالهن. يدخل على خادماته كما لو كن ملك اليمين. يتفنن في تعذيب زوجاته الأربع وقهرهن. المرأة في حياته وعاء لإنجاب الذكور وحسب. من تشق له عصا الطاعة يحكم عليها بالموت عن طريق التوقف طواعية عن التنفس.

يذكرني "مُطلِق" هذا بأسطورة يونانية عن حشرة "الزيز" CICADA. يتخذ ذكر الزيز لنفسه ست أو سبع زوجات. تقوم كل واحدة منهن بعمل حفرة في الثرى ثم تدلف فيها تاركة رأسها فقط ناتئا على وجه الأديم؛ وتبدأ في وضع البيض. عندما يتأكد سيدهن من وضعهن جميعا للبيض بشكل سليم يتنقل بينهن ويفصل رؤوسهن عن أجسادهن عن طريق العض بينما يبقى الجسم في الحفرة لتتغذى عليه الذرية بعد الفقس! حقا... الحقير لا يكفيه دمارك، بل يبني نفسه من حطامك وبقياك وأشلاءك.

كانت على ذمة "مُطلِق" هذا أربعة: عرعرية وجيزانية ونجدية وحجازية. طلق الأخيرة منذ أكثر من عام بعد أن أنجب منها بنتين. تمتع بقدر كبير من البلادة والبرود حتى ليُخيل لك أنه كان يرضع ثلجا. لم يكن يتحدث عن طليقته بأسلوب جيد. يقول عن أهلها "طرش بحر" بمعنى أنهم جاءوا للمملكة من البلاد المجاورة فليس لهم أصول معروفة.

في السعودية تنتشر ظاهرة تُسمى "الترقيم" أي تبادل أرقام هواتف النساء والرجال. في الحقيقة هذه الآلية موجودة في العالم بأسره. أخبرني أحد أصدقائي وكان في زيارة للولايات المتحدة أن عاملة "الكاشير" في متجر كتبت له بسرعة البرق هاتفها الشخصي على الإيصال.

في المملكة يأخذ الموضوع بعدا مختلفا نظرا لأن البلد محافظ لأبعد الحدود. بعض الشباب يشحن على الهواء لنساء يعشن في المنطقة الشرقية بمائة ريال يوميا فقط ليتحدثوا عبر الهاتف طوال الليل. أغلب الشباب السعودي يمتلك هاتفين: أحدهما فخيم يحتفظ به بأرقام أهله وأصدقائه والآخر عادي للسمر وأحاديث المساء.

في ليلة من الليالي دقت "صيته"، الحجازية، آخر من سرح "مُطلِق" هاتف أستاذ أردني من أصل فلسطيني كان يعمل بفرع الجامعة في "حريملاء". لابد وأنها حصلت على الرقم من أحد الطلاب أو من صفحة الأستاذ على موقع الجامعة. كان الرجل يقيم بمفرده ويحب السهر. سحره صوتها.

تحدثا بالشهور بصفة يومية عن الحب والجنس والغرام والشوق وعن أشياء أخرى كثيرة. بعث لها الأستاذ الجامعي يوما رسالة من جواله كتب فيها "أي شيء في العيد أهدي إليك يا ملاكي؟" مستحضرا قصيدة "إيليا أبو ماضي"، فردت عليه "الزواج". فعلا أعرب الرجل عن رغبته في الزواج منها مسيار. كان مُهددا بالاستغناء عنه من قبل الجامعة فوجدها فرصة سانحة للمكوث في المملكة.

علم طليقها بالأمر. اصطحب أستاذ الجامعة إلى البر قائلا له:

- عندنا مثل في بلادنا يقول "يا غريب... خليك أديب"؛ وأديب هنا معناها "مهذب".
- وما علاقتي بهذا المثل؟!
- أترى هذا الجبل هناك؟
- نعم.
- يذكرني بجبلي "أجا وسلمى" في "حائل "حيث ولدت.
- حقا...وما الذي أتى بك إلى هنا؟!
- كان على أبي دية.
- لم؟!
- قتل رجلا تعرض لمحارمه.
- ثم؟!
- ثم عفا عنه أولي الدم نظير دفع الدية ورحيلنا عن البلد. هل تريد أن تعرف قصة "أجا وسلمى"؟
- لا بأس.

- عشق الشاب "أجا" فتاة اسمها "سلمى"، لكن أهلهما رفضا تزويجهما. في يوم من الأيام هربت سلمى مع رفيقها أجا، فطاردهما القوم حتى أمسكوا بهما بين الجبلين، وهناك قتلوهما وصلبوهما.
- ماذا تريد أن تقول؟!
- ابعد عن طليقتي أيها الغريب.
- ها قد قلتها بلسانك... طليقتك.
- وأم بناتي. اسمع... تذكرت الآن أنها كانت الطلقة الثالثة.
- "طلقة"... فعلا... اسم على مسمى.
- إذا احتجت إلى تيسا مستعارا فسوف أرسل لك؟
- ماذا تقول؟!
- محلل.
- هذا لا يرضي الله أن تجعل طليقتك كالبيت الوقف.
- لقد حذرتك. رمي شبكة الصيد أسهل من سحبها ولمها. لن تصطاد في منطقتي؛ لن أسمح لك بذلك. لقد حذرتك وقد أعذر من أنذر. آه... بالمناسبة نسيت أن أقول لك الطريقة الأخرى التي نتداول بها مثل الغريب.
- "الغريب ذيب".

- ذيب؟!

- ذئب... وبما أن الذئاب جُبلت على العيش في البراري، فاستمتع بالمكان.

ضحك مُطلِق ضحكة حمقاء وترك الرجل في البر كعقاب له لأنه تجرأ وفكر أن يتزوج طليقته على سنة الله ورسوله! كان "مُطلِق" هذا يمارس نوعا من الإرهاب والنخاسة الفكرية في "حريملاء". لا يتورع عن فعل أي شيء ليحقق مآربه.

ورغم أنه لا يُحسن الصلاة ويعبث بأصابعه أو ينتف لحيته أو يطالع جواله أثناء تأديتها، إلا أنه كان على علاقة ببعض الأشخاص في هيئة "الأمر بالمعروف". أسر لهم بأني تحايلت لأبقي المرأة السورية في المملكة بزواج صوري. لا أدري من أين يحصل على المعلومات، لكن يبدو أن له عيونا هنا وهناك من المطاوعة والمتعاونين. اغتاظ من رفض "نهيلة" له وأراد أن يرد الصفعة.

قابلني اثنان من رجال الهيئة عقب صلاة الجمعة. انتحيا بي وأخبراني بما يساورهما من ظنون. قالا لي أنه لا يصح أن أترك زوجتي بمفردها في مسكن وأعيش في آخر. أخبرتهما أن المرأة ما زالت في النفاس والحداد على زوجها، لكنهما لم يبديا تفهما لهذا الأمر وأمهلاني نهاية الأسبوع لأنتقل للإقامة مع حرمتي، وإلا اتخذا إجراءات بحقي وحقها.

أخبرت النفر الثلاثة الذين زاروني وأقنعوني بالزواج من "نهيلة" بالأمر فأبلغوني أنهم سيفتحون الأمر معها عن طريق زوجاتهم. في الصباح جاءني الرد. تقول "نهيلة" "البيت بيتك، وإنما هي ضيفة فيه، وأنها لا ترضى لك الضرر، وجزاك الله خير عما فعلت." أحرجتني بكلماتها.



الفصل العاشر

فعلا اتخذت إجراءات نحو بيع الأثاث وتركت الشقة وحملت أغراضي وانطلقت نحو مساكن الأطباء وقلبي يدق كالمدش النحاسي القديم. في الميعاد المقرر لوصولي الشقة وجدت بابها مفتوحا. نقرت على الباب ثم دخلت وأوصدته خلفي.

وضعت حاجياتي وأغراضي وكتبي في الردهة. جلست على الأريكة لا أعرف كيفية التصرف، وماذا يتعين عليّ أن أفعل؟! لا أدري لماذا لكني تذكرت "إسماعيل ياسين" و"حسن فائق" في فيلم "ليلة الدخلة". أوقعهما خطأ الخاطبة في مطب كبير حين اكتشفا أنهما تزوجا من فتاتين دميمتين.

رحت أتطلع في الردهة خفيضة الإضاءة. كانت بها نافذتان مرتفعتان عن الأرض؛ وعليهما كمية كبيرة من أسياخ الحديد. في "نجد" لا توجد

شرفات مفتوحة. تذكرت الإسكندرية وبيتنا الذي يرى حدود المدينة من قصر المنتزه إلى قصر التين. كيف انتهى بي الحال إلى هنا؟!

وجدت نسخة من مفتاح الشقة على الطاولة. لا بد أن "نهيلة" وضعته هنا من أجلي. مسكت بالمفتاح ورحت أقلبه في يدي وقد تملكني الارتباك. لا أدري هل ذلك مفتاح الزنزانة أم مفتاح السعادة أم مفتاح الكنز أم مفتاح الصندوق الذي سرقوه ثم رموه في النيل؟

من حسن الحظ أن الشقة كان بها حمامين أحدهما للضيوف تلج فيه مباشرة من الردهة والآخر بجوار المطبخ بين غرفتي النوم اللتين يفصلهما عن مدخل الشقة طرقة طويلة نسبيا. نمت في اليوم الأول على الأريكة في الردهة. تذكرت "برينا" وهي نائمة كالملاك على الأريكة، فقفزت الابتسامة إلى شفتي.

كنا في ما يعرف في المملكة بـ "المربعانية" والتي تعني أربعين يوما من البرد القارص. ما أجمل دفء أجسام النساء حين يشتد البرد! في المساء شعرت بيد تضع بعض الأغطية على ظهري. كانت عيني مثقلة بالنوم. لا بد وأنها "تُندي" قد قفزت من "بودابست" لـ "حريملاء" لتدثرني.

لماذا تخليت عني يا تُندي"؟ كم أنا بائس وضائع بدونك. أعيديني إلى رحمك... إلى دفء قلبك. عمري صقيع وجدب بدونك. ضمدي جروحي. دغدغي أيامي. هزي كياني. دعيني أنام بين أهدابك. بوحي لي بأسرار الحياة. أنا

العدم دونك... حصاد الهشيم... ضيعة السنين... كومة قش... خرقة بالية. أين أنت يا "تُندي"؟

تعمدت البقاء في المستشفى لفترات أطول. بعد الانتهاء من عملي أجلس للمذاكرة. أتناول وجباتي البائسة في مطعم المستشفى. استحم هناك وأرسل ملابسي المتسخة إلى المغسلة.

أعود إلى المنزل ليلا. أدق الجرس ثلاث مرات متتالية قبل أن أفتح الباب. بعد أقل من ربع ساعة أغط في نوم ثقيل. وضعت لي "نهيلة" يوما "كبيبة" ذكية الرائحة في صينية على منضدة الردهة؛ ورغم ذلك لم تمتد يدي إليها. فهمت الرسالة فلم تكرر التجربة.

في البداية وقبل أن أنتقل للإقامة مع "نهيلة" كنا نتواصل عن طريق زوجة جارنا السوري. كانت "نهيلة" تخبرها بما تريد ثم تنقل جارتنا المسألة لزوجها. بعد أن صرت أعيش معها تحت سقف واحد ظللنا لفترة نتحاور بالأوراق؛ وكان صندوق البريد هو منضدة الردهة. في يوم من الأيام وجدت ورقة مكتوب عليها "هذا رقم هاتفي." حفظت الرقم من نظرة واحدة.

عندما تسلمت راتبي وضعت مبلغا في ظرف وتركته على المنضدة. أخذته "نهيلة". تتصل بالبقالة أو بالصيدلية فيرسلون لها ما تريد. أسمع بكاء الصغيرة أحيانا في المساء. أشعر أن سوريا كلها تبكي. مضت الأيام على هذا النحو بشيء من الصعوبة. اعتدنا الحياة معا دون أن نتحدث أو حتى يشاهد أحدنا الآخر.

رُشحت بعدها بفترة لحضور مؤتمر طبي في "الرياض". حجزت لنا الشركة الراعية للمؤتمر غرف للمبيت في أحد الفنادق المشهورة. اتصلت على "نهيلة". كانت أول مرة أتكلم معها. تخيلت أن معها رقمي وأنها أخذته من جارنا الطبيب السوري، لكني كنت مخطئا. كان صوتها عذبا ومؤنسا.

- ألو.
- نعم.
- أنا "مصطفى".
- من؟!
- "مصطفى"... "مصطفى"...

اقتضى الأمر أن أذكرها بأن لها زوج اسمه "مصطفى". كان الأمر برمته محرجا.

- ... "مصطفى"، زوجك.
- آه... كيف حاك؟ هل أنت بخير؟ أعتذر لك، فهذه أول مرة تكلمني؛ وليس معي رقم جوالك.
- لقد توقعت ذلك.

أخبرتها بأني سأغيب عن المنزل يومين لحضور المؤتمر؛ ووجدت من الواجب عليّ أن أخبرها بما أننا نحيا معا. شكرت لي المبادرة وتمنت لي

السلامة. شعرت أنها ظلت فترة على الهاتف بعد أنهيت حديثي تنتظر أن يمتد حبل الكلام أو أن أغلق الخط.

أجمل ما حدث لي أثناء مؤتمر الرياض هو أني تناولت كميات مهولة من الأسماك والمأكولات البحرية. كنت متشوقا لها. عرجت أيضا على محل "جاد" وتناولت فيه الفول و"الفلافل" مع الخبز الطازج. تذكرت فرع المحل بمحطة الرمل وكيف كنا ننطلق من كلية الطب إليه لننعم بالأكل فيه بين المحاضرات. في الرياض، حاولت أيضا دخول أحد المراكز التجارية الوثيرة، لكنهم أوقفوني وردوني لأنه ليس معي عائلة.

في طريق العودة من العاصمة إلى "حريملاء" بعد انتهاء المؤتمر قطع أحد الجمال السوداء الهائمة الطريق فجأة. أغمضت عيناي بعد أن تيقنت أن دهسه محقق. هذه الحيوانات قوية جدا لدرجة أنها تقلب السيارات؛ كما يدفع أصحابها ديات لو تركوها تهيم على وجهها في الطرق.

لا أعرف بالضبط ماذا حدث؟ وجدت نفسي في السيارة وقد صُفت على جانب الطريق الخالي ولا أثر للجمل! كيف حدث هذا؟! لم أضع قدمي على المكابح. أنا متأكد من ذلك. على أي حال، حمدت الله على النجاة.

جلست حوالي ربع ساعة والسيارة واقفة كما هي أحاول أن أستعيد أعصابي وأفهم ما حدث. شممت رائحة سجائر في السيارة! أخذت أبحث من مصدر الرائحة فوجدت مطفأة السجائر قد خرجت عن منيمها نتيجة لاندفاع السيارة. كان بها بعض أعقاب السجائر القديمة. ربما كانت تخص مالك

السيارة التي ابتعتها منه. تفحصت الأعقاب فوجدتها من نفس النوعية التي تدخنها أمي!

ابتسمت حين تذكرت "تُندي" وعادت لي حيويتي وطاقتي. حين أدرت السيارة وعدت للطريق انطلق المذياع بموسيقى أعرفها، "السيمفونية الخامسة" لـ"بيتهوفن"! لطالما سمعتها كثيرا مع أمي في الغسق وأوقات السحر.

عدت إلى المنزل ولم أشعر بوجود "نهيلة" ولا ابنتها. توجهت نحو غرفة نومهما على أصابع قدمي فتأكدت من خلو الدار. تعجبت من ذلك، لكني انتهزت الفرصة فعاينت أغراض "نهيلة" ومتاعها لعلي أعثر على صورة لها. وقعت يدي على مشد صدر حريري جميل من النوعية الغالية. أخذت أُدخل يدي في تجويفه ربما لأحدد حجم نهديها.

قبل أن أُتمم مهمتي أحسست بصوت بكاء الرضيعة على الباب. أُسقط في يدي ولم أعرف كيف أتصرف؟! دسست حمالة الصدر في جيبي، وعدت أدراجي بسرعة البرق وجلست على الأريكة. فتحت "نهيلة" الباب فوجمت حين رأتني. وجدت امرأة طويلة ورشيقة. كانت منتقبة بطبيعة الحال. ابتدرتها قائلا:

- أين كنت؟
- كنت... عند جارتنا السورية.

لم أعلق. أخذ صوتها الجميل بلبي. توجهت "نهيلة" نحو غرفتها، ثم عادت سريعا قائلة:

- الحقيقة لم أكن عند جارتنا السورية.
- أين كنت إذن؟!
- كنت عند عروس سعودية تستعد للزواج.
- لا أفهم. ولماذا لم تخبريني؟!
- أشعر أنك لا تهتم بذلك.
- ليس هذا صحيحا. لا تنسي أنك على ذمتي... لكن ماذا كنت تفعلين هناك؟
- أريد أن أصارحك بشيء، لكن لا تغضب.
- وما هو؟
- اعتدت العمل في تجهيز العرائس وتجميل النساء.
- ماذا؟! تعملين في نزع شعر النساء وترقيق حواجبهن؟!
- حفافة.
- تقولين الكلمة بمنتهى البساطة؟!
- وأجلب لهم الملابس الداخلية أيضا.
- دلالة!

- وأصنع لهم بعض الأطعمة. انه عمل مربح. ادخرت مالا كثيرا من وراءه. ما العيب في ذلك؟
- يجب أ ن تتوقفي عن فعل هذا؟ أنت زوجة طبيب محترم.
- وما الضير؟ يتم الأمر بصورة طبيعية وكأني أقوم بزيارتهن ليس إلا. ترسل لي النسوة السيارة فأركب مع السائق الخاص ويعيدني بعد انتهاء عملي.
- هل كان "فراس" يعلم بذلك؟
- لا.
- أرجوك توقفي عن ذلك.
- أفعل.

قالتها على مضض. لم أدر ماذا أفعل بمشد الصدر الذي في حوزتي؟! قررت إخفاءه. مع مرور الوقت زاد التواصل بيننا، لكن العلاقة ظلت مبتورة. أجلس في الردهة بالساعات أذاكر بينما تجلس "نهيلة" في حجرة النوم تشاهد التلفاز.

دفعني الفضول إلى أن أسترق النظر إليها حين تدخل الحمام أو تنتقل بين الغرفتين. لمحت قدميها. كانا صغيرين وشديدي البياض والتورد.

أحب اللون الأبيض لأنه أساس الألوان. أحبه لأنه لون الفضح والصدق. أحب المرأة البيضاء كالشمع و"الشيكولاته" البيضاء والنور الأبيض

والأقحوان الأبيض والبيض الأبيض. أسقطت من مخيلتي فكرة أن "نهيلة" سمراء وتطلعت إلى رؤية المزيد، لكن دون جدوى.

ذات مرة حاولت التلصص عليها من عقب الباب الذي تبقيه دائما مغلق، ربما حتى لا يزعجني صوت التلفاز أو بكاء الصغيرة. في اليوم التالي لعملية التلصص الفاشلة فوجئت بها تترك الباب موارب. هل يعني ذلك أنها شعرت بي خلف الباب؟! شعرت بالحرج. زوج يتلصص على زوجته! لا بد وأن لديه عُقد؛ ليس لها تفسير آخر.

سألت نفسي: "ما نهاية هذه العلاقة المأزومة؟!" اليوم فقط استلمت أمر الإركاب وأريد أن أمضي العطلة في "الإسكندرية". لابد وأنني سأصطحب "نهيلة" و"إيميسا" معي، لكن كيف سيحدث ذلك؟!



الفصل الحادي عشر

بعد قرابة أسبوع تركت لي "نهيلة" ورقة تطلب مني القيام بعمرة لوالدتها التي قضت في "حمص". لم أشأ أن نذهب مع الحملات الجماعية فأعددت خطة للتوجه إلى مكة بسيارتي ذات الدفع الرباعي. الحقيقة تحايلت على الأمر ووجدتها فرصة سانحة لاكتشاف هذه المرأة وإزالة اللثام عن أسرارها وخباياها.

فعلا انطلقنا عصر يوم وافق الأربعاء. أنزلت الحقائب وفتحت لها بابي السيارة الأمامي والخلفي لأخيرها. أغلقت "نهيلة" الباب الخلفي وجلست بجواري. لم نقل الكثير أثناء الرحلة. انشغلت "نهيلة" في مداعبة "إيميسا" والنوم والاستماع إلى المذياع.

حين وصلنا مكان الإحرام المعروف بـ "قرن المنازل"، استأجرت شقة لمدة ساعتين. كان بها ثلاثة أسرة؛ استلقينا عليها لنريح ظهورنا فرحنا في نوم

عميق. لم يوقظنا سوى طرق العامل البنغالي يعلن عن انتهاء الساعتين فاستأجرت ساعة ثالثة.

بعد أن اغتسلت ولبست ملابس العمرة، توجهت "نهيلة" بعدي إلى "التواليت". انتظرت هذا المشهد بفارغ الصبر. حتما ستكشف "نهيلة" عن وجهها لأن كشف الوجه من مستوجبات الإحرام. جلست على حافة السرير أداعب "إيميسا" وأنتظر هذه اللحظة الفارقة. دغدغ صوت مياه "الدش" أعصابي وأنا أتخيلها تجري على جسد "نهيلة"

فعلا خرجت "نهيلة" من الحمام سافرة الوجه. تسمرت مكاني وأنا أنظر إلى وجه شديد الجمال والفتنة. رقص قلبي فرحا وحاولت أن أتحكم في مشاعري. ارتبكت بشدة؛ وحاولت الانشغال بجمع حاجياتنا في الحقيبة وأنا أختلس النظرات إلى كل شبر وبوصة فيها. سبحان من صنع هذا الوجه الصبوح.

"الصب تفضحه عيونه" والمشتاق تفضحه كل جارحة من جوارحه. أحست "نهيلة" ببعض الخجل. تمنيت أن تطول الجلسة، لكني تذكرت أني في ملابس الإحرام فواصلت الرحلة إلى مكة.

في صحن الكعبة رحت أسير خلف "نهيلة" وأنا أحمل "إيميسا" حتى لا يؤذيها الزحام. جاءت في حضني غير مرة فشعرت بطراوة جسمها. سرح خيالي لفترة، لكن سرعان ما طردت هذه الأفكار من رأسي.

في الفندق طلبت مني "نهيلة" أن آخذ شيئا من أطراف شعرها بالمقص لتتحلل من الإحرام. رفعت حجابها فسقط على كتفيها طريق الحرير. نعم شعر أسود طويل كالحرير؛ فضلا عن أن رائحته ذكية.

كان واضحا أن نوعا من الجاذبية قد صارت بيننا؛ وأن كل منا قد التقط إشارات الآخر. لاحظت "نهيلة" أن حجري منتفخ. حين أمسكت بشعرها سرت في جسمي قشعريرة غريبة. أخذت الخصلة في كفي وقبضت عليها.

- دعني آخذ عنك هذه الخصلة.
- آه... بالطبع... تفضلي.
- أم هل تريد الاحتفاظ بها؟
- لا... لماذا أفعل ذلك؟!
- لا أدري... بعض الناس يصنعون أحجبة أو خلافه.

لم أعلق. قلت في نفسي "وددت لو صنعت حجابا يرقق قلبك ويقربك مني يا "نهيلة". وددت لو عرفت ماذا يدور برأسك؟ وددت لو عرفت نهاية قصتي معك."

- أشكرك على اصطحابي للعمرة.
- العفو... لا شكر على واجب.

بعد أسبوع من عودتنا طلبت مني "نهيلة" أن اصطحبها من جديد إلى بلدة تُسمى "المذنب" لشراء ذهب "مكسر"، أي مستعمل. لم أشأ أن أتدخل في

هذا الأمر فمن حكم في ماله ما ظلم. فعلا انطلقت بهما إلى هذه البلدة بـ "القصيم". لم نتحدث تقريبا، واكتفينا بسماع "فيروز" وهي تغني "يا أنا يا أنا أنا وياك" على وقع السيمفونية ٤٠ لـ "موتسارت".

في طريق العودة تعطلت السيارة. ولأنه لدي فكرة عن "ميكانيكا" السيارات فقد حاولت إصلاح العطب. نزلت "نهيلة" من السيارة وعلى يدها "إيميسا". طلبت منها أن تُحضر لي خرقة من حقيبة السيارة لأن يدي كانت متسخة.

عادت "نهيلة" بقطعة القماش وقطعة أخرى. نعم... مشد الصدر. كنت قد خبأته في حقيبة السيارة ونسيت أمره تماما. عقدت الصدمة لساني فلم أرد. تمنيت أن تنشق الأرض وتبلعني.

ورغم ذلك فأنا مدين لهذه القطعة السوداء فقد اختصرت كثيرا من الإجراءات المعقدة. شعرت "نهيلة" بما نحن مقبلون عليه، فقررت أن تأخذ زمام المبادرة. في يوم وافق بداية عطلة نهاية الأسبوع في المملكة، يوم الأربعاء الذي يُصاب فيه الحمصيون والحمصيات بالجنون خرجت "نهيلة" عن صمتها وخرجت عن جادتها وخرجت من ملابسها.

فجأة سمعت صوت مشيتها قادمة نحو الردهة. اعشوشبت الأرض تحت قدميها البضين. كان معها قدحين من الشاي بـ "الميرامية". نظرت إليها في تطلع، ودعوتها للجلوس على الأريكة.

وضعت صينية الشاي وجلست في مقابلي. رحت أتفرس في شعرها الناعم وملامحها الدقيقة وعينيها النجلاوين. شعرت ببعض الرهبة ودق قلبي كساعة "بيج بين" معلنا - ربما - عن قرب انفراج الأزمة. نظرت في الصالة قائلا:

- أشكرك على تنظيف الردهة وترتيب كتبي وأغراضي.
- لا شكر على واجب... عندنا مثل في سورية يقول "نظف بيتك ما بتعرف مين بيدوسه ونظف...
- لماذا سكتي؟!
- يكفي الجزء الأول من المثل.
- أريد أن أعرف بقيته.
- ... ونظف خدك ما بتعرف مين بيبوسه"

شعرت أن قوة عجيبة رفعتني من المقعد ووضعتني على الأريكة بجوارها، وأني مددت ثغري إلى حيث صحن خدها وقبلته قبلة طويلة. شعرت "نهيلة" بالحرج وتورد وجهها. تدحرجت دمعة دافئة على الخد الأسيل فشقت طريقها في صمت ثم جاءت أترابها تترى. أفقت لأجد نفسي في مكاني على المقعد لم أبرحه.

- عرفت أنك كنت متزوج.
- نعم.

- هل يمكن أن أسألك عن سبب الانفصال؟
- مشاكل.
- أي نوع من المشاكل؟

أُسقط في يدي. لم أدر ماذا أقول لها فلجأت إلى الكذب قائلا:

- لقد كانت زوجتي عصبية ونرجسية ومبذرة وتبالغ في أناقتها وتجري عمليات تجميل لا ضرورة لها...
- كل هذا؟!
- نعم، وأكثر.

ظللنا نتحدث بالساعات. تكلمنا في كل شيء: "فراس" وسوريا ومصر. تحدثنا عن "أصالة نصري وميادة الحناوي ونزار قباني ودريد لحام وغادة السمان" والمسلسلات السورية: "باب الحارة والحصرم الشامي". تحدثنا عن هوايتنا والأطعمة التي نحبها. درست "نهيلة" التدبير المنزلي، وتحب عمل الأكلات الجديدة. أخبرتها عن "تُندي" وأبي و"الإسكندرية" وأخبرتني عن أهلها وعن الحكايات العجيبة التي سمعتها في بيوت السعوديات اللاتي كانت تتردد عليهن.

لا بد وأن الخطوة القادمة هي العباءة. يا تُرى ماذا ترتدي "نهيلة" تحت هذه العباءة؟ فستان؟ قميص داخلي؟ لا شيء؟ لكن العباءة تحتاج بعض الجرأة. توجهت نحوها. احمر وجهها. قامت معي. قبلتها قبلة واحدة؛ وقبلتني

قبلة الحياة. أحست باهتمامي ففتحت عباءتها لتكشف عن مشد الصدر القديم ومعه القطعة الثانية!

- شعرت أنك ربما تحتاج للقطعة الثانية.
- ماذا تسمونها في سوريا؟
- لا أعرف.
- في الحقيقة... أنا في حاجة إلى كليهما.
- بحثت عن المشد كثيرا. لم أدر أنه بحوزتك!
- بحثت عنه أكثر منك.
- لا أفهم.
- انتظري قليلا وستفهمين كل شيء.

"يا زين نهودها" كما يقول الخليجيون. تجدد نشاطي فجأة. وعاد إليّ إحساسي القديم بالنساء. أجلستها برفق على الأريكة وأنا أقول لها:

- أمتأكدة مما أنت مقبلة عليه.
- نعم... تستحق أكثر من ذلك. لقد كنت نبيلا.
- إنك جميلة جدا!
- بل عيناك هي التي ترى الأشياء جميلة.
- هل ستدعيني أقبل صدرك المستدير؟

- كلي لك.

يقول الإمام الشافعي أنه من لم يتزوج بمصرية فلم يتم إحصانه؛ وأنا أقول أنه من لم يتزوج بسورية فإنه لم يتزوج أصلا. السوريات يتربعن على قمم الجمال في العالم بعد المجريات والبولنديات. صدق المثل الذي يقول "تزوج سورية وعش في العلية". ورغم ذلك فقد أخبرتني "نهيلة" أن أصول عائلتهم مصرية تعود لبعض الجنود الذين دخلوا "حمص" مع إبراهيم باشا بن محمد علي في حملته على الشام.

تغير طعم الأيام مائة وثمانين درجة. شعرت أني أطير على السحاب من شدة الفرح والنشوة. أصبحت أنتهي من عملي وأهرع إلى البيت لأرى "نهيلة" وآكل من يديها وأرتوي من رحيقها. أصبحت مهووسا بجسمها دقيق التفاصيل والتعاريج. أدمنت معاشرتها لدرجة أن شعرها لم يجف بالأيام.

في يوم من الأيام اتصلت بي "نهيلة" باكية. تركت عملي وأسرعت إلى الشقة عدوا. ما إن فتحت الباب حتى ارتمت في صدري. كانت في حالة مزرية:

- أغثني يا "مصطفى"!
- ما بك يا "نهيلة"؟! أخبريني؟ هل حدث لـ "إيميسا" مكروه؟
- كلا ... إنها بخير.
- وأين هي؟!

- عند جارتنا السورية.
- هدئي من روعك وأخبريني ماذا حدث.
- سأخبرك لكن أريدك أن تُقسم على كتاب الله ألا تطلقني.
- أطلقك؟! ماذا حدث؟!

بدأ الفأر يلعب في عبي. استرجعت مشهد "دلال" وهي تمتطي عشيقها الأصلع. هل كتب الله عليّ أن أمر بمرارة هذه التجربة من جديد؟! لماذا أنا بالذات من دون البشر يحدث لي ذلك؟! أي ذنب اقترفته يداي؟!

بدأت "نهيلة" تروي ما حدث. بعد أن توجهت لعملي في الصباح اتصلت بها امرأة وطلبت منها أن تأتي إليها لتحف شاربها وذقنها وتجهزها لأن زوجها سيعود وشيكا من السفر. عرضت عليها مبلغا خرافيا. سال لعاب "نهيلة". نسيت أني طلبت منها التوقف عن شغل الماشطة تلك. أودعت "إيميسا" لدى جارتنا السورية وركبت مع السائق البنغالي الذي أرسلته المرأة.

انطلقت السيارة "الجيمس" ذات الزجاج المظلل إلى أطراف البلدة. بدأت "نهيلة" تشعر بالقلق. ضغط السائق على زر البوابة التي تعمل بالتحكم عن بعد فارتفعت وولجت السيارة داخل المنزل المترامي. وجدت "نهيلة" لافتة مكتوب عليها "استراحة للإيجار".

نعم كانت استراحة "مُطلِق". أوعز إلى شاب خائر ممن يقومون بعمل قوم "لوط" بتقليد صوت المرأة. وأوعز إلى شاب آخر ممن "يفحطون" بالسيارات في

الشوارع تحت تأثير حبوب "الكيبتاجون" فعرى زوجتي وتحسس جسمها وصورها وهو يقذف بمنيه على صدرها الأبيض الكبير ثم أعادها السائق إلى الباب الخارجي للمستشفى.

كنت مخطئا إذ ظننت أن "مُطلِق" قد رفع الراية البيضاء. هدد الشاب زوجتي بأنها لو فتحت فيها فستملأ صورها مواقع الإنترنت. تركت "نهيلة" وقمت عنها غاضبا.

- ألن تفعل شيئا؟!
- ماذا تريديني أن أفعل؟!
- تنتقم لشرفك.
- كيف؟ أبتاع مسدسا وأذهب إلى استراحة تؤجر لهذا وذاك لأقتل ما فيها. لماذا فعلت ذلك وقد حذرتك؟

أمضيت ليلة سوداء أفكر في ما حدث وفي شرفي المنتهك وعرضي المستباح دوما. فكرت في ضعفي وقلة حيلتي وعدم قدرتي على العراك أو الضرب أو الإتيان بأي شيء يمكن أن يتسبب في أذى للناس. فكرت في سلبيتي وهواني أمام من يأخذ أشيائي ويسلب متاعي وحاجياتي. كيف تحولت إلى هذا الشخص الجبان، الديوث، عديم النخوة، خائر العزم؟! كيف أصبحت خنزيرا يُدخل بقية الخنازير على أنثاه؟!

تذكرت قصة الطبيب المصري الذي اصطحب زوجته لزيارة أحد السعوديين فدخلت من المكان المخصص للنساء لتجد بعض الرجال الذين تناوبوا الاعتداء عليها بينما كان زوجها يشرب القهوة ويتناول التمر في الجانب الآخر من المنزل الفسيح. حين عرف الرجل ما حدث من زوجته، طلب منها أن تتكتم الأمر. دعا السعودي ليرد له كرم الضيافة في منزله، ثم قتله أبشع قتلة وتوجه مع زوجته للمطار عائدا إلى مصر. "الشرف غال" كما يقولون.

أنا عاجز عن الانتقام؛ أعرف نفسي. حتى لو شاهدت جميع الأفلام الهندية عن الثأر ومعها أفلام "أمير الانتقام" و"دائرة الانتقام" و"الكونت دي مونت كريستو" و"جلادياتور" عشرين ألف مرة فلن أفعل شيئا. أعرف ذلك. ودعت النوم وأنا أفكر في الأمر وأقلبه في رأسي حتى دخلت عليّ "نهيلة" قائلة:

- دعنا نرحل من هنا... لقد اقتربت أجازتك. دعنا نرحل إلى مصر ولا نعود.
- دعيني بمفردي الآن يا "نهيلة".
- لا تطلقني يا مصطفى... أرجوك. ليس لي أحد سواك. من أجل "إيميسا" لا تطلقني. لقد أخطأت. لا بد أن أعترف. لم أسمع كلامك. اطمئن يا "مصطفى" لم يكن وجهي مكشوفا. حتى لو رفعوا الصور لن يتمكن أحد أن يستدل على هويتي.

- وماذا عني أنا يا "نهيلة"؟! أنا أعرف أنه أنت. سأنظر إلى هذه الوحمة بين نهديك وسأعرف أنه أنت، وسأنظر إلى الجرح في جنبك الأيمن وسأعرف أنه أنت. كم من الشباب سيستمني على هذه الصور يا "نهيلة"؟!

- سامحني يا "مصطفى". لقد أراد أن يكسر غروري وحسب. انتهى الأمر عند هذا الحد.

- مشكلتك هي النقود يا "نهيلة". لا تتحكمين في نفسك أمامها. كان ينبغي عليك أن تقبلي بـ "مُطلِق". كلاكما مناسب للآخر.

انكبت "نهيلة" على قدمي تقبلها، فرفعتها من على الأرض.

- لا تقسو عليّ يا "مصطفى". كفى ما أنا فيه.

- هل قلت لي كل شيء يا "نهيلة"؟

- نعم... أقسم لك... هذا هو ما حدث بالضبط.

- على أي حال، لن أتخلى عنك يا "نهيلة". لنسافر إلى "الإسكندرية" ولندع "حريملاء في كبد أهلها"، كما يقولون(١)



(١) يُقال أن أول من عمر "حريملاء" رجل شامي من عائلة "أبو ريشة" وقيل بل مصري أرسله والده لهذه المنطقة، وحين استيأس منها بعث له يحثه بالعودة قائلا: "خل حريملاء في كبد أهلها" فذهبت مثلا.

الفصل الثَّاني عشر

وضعت المفتاح النحاسي في "كالون" شقتنا بـ "ميامي" وأدرته فانفتح الباب بصعوبة. دخلت الشقة أهدهد "إيميسا" التي أحببتها كثيرا كلما شبت وأينعت. وقفت أمام صورة "ميار"، أو المرأة المتشحة بالسواد متشوقا. نظرت "نهيلة" إليها وهي تبتسم. ابتدرتني سائلة:

- من أحضر صورة "الليدي ديجبي" إلى هنا؟
- من؟!
- "جين ديجبي".
- ومن تكون هذا السيدة؟
- امرأة إنجليزية أرستقراطية أتت سوريا في منتصف القرن التاسع عشر. تزوجت من الشيخ "مجول المصرب" وسكنت عندنا في "حمص".

- عجيب!
- ألم تشاهد مسلسل "سحر الشرق"؟
- بلى... شاهدت حلقة أو اثنتين، لكن أظن لهذه السيدة عينين خضراوين أو زرقاوين.
- كلا... إنك مخطئ دون شك.

طلبت من "نهيلة" أن ننام في الحجرة الصغيرة عوضا عن الغرفة التي شاهدت فيها "دلال" مع عشيقها. استجابت "نهيلة" مندهشة. قررنا أن لا نعود للمملكة. عدت لعملي ودراستي؛ وأعطيتها مدخراتي لتضيفها إلى ما لديها من مال لتفتح مطعما للأكلات السورية في "سيدي بشر". في مصر يقيم العرب والأجانب ويتملكون العقارات والأراضي والمحلات دون غضاضة.

بعد فترة وجيزة من عودتنا أخبرتني "نهيلة" أنها حامل فكدت أفقد صوابي من الفرحة. طلبت منها أن تريح نفسها قليلا من الوقوف في المحل وأن تهتم بصحتها فوعدتني بذلك. بعد ساعة واحدة من تلقي الخبر، لعبت الظنون بعقلي. عدت للشك من جديد في واقعة الاستراحة. أقسمت "نهيلة" من قبل أنها أخبرتني الحقيقة... كل الحقيقة.

زاد شرودي. قررت أن أقطع الشك باليقين فاصطحبت "نهيلة" إلى أحد المعامل لنأخذ منها بعض العينات بحجة الاطمئنان على صحتها. فعلا تم كل

شيء دون أن أثير ريبتها حفاظا على مشاعرها وعلاقتنا. شاء الله أن يُجهض الحلم قبل أن يبدأ؛ فسقط هذا التكوين، سمه ما شئت.

وقعت عيناي على نتيجة تحليل الشريط الوراثي أو إثبات البنوة. كنت قد وضعت الورقة في درج المكتب وانشغلت بـصحة "نهيلة"؛ أو قل أني توجست من فتحها. أمسكت بالورقة وأنا أرتعش من الخوف. ماذا لو أن الجنين لم يكن لي؟

فتحت جزءا من التقرير، لكن قبل أن أقرأ منه أي كلمة عدت فأغلقته ومزقته إربا. جلست أمام الخطاب وقد تحول إلى قصاصات من الورق. أمسكت بها محاولا تجميعا؛ ثم عدت فلممتها وناولتها لعامل النظافة ليلقي بها بعيدا.

مرت الأيام. قطعت شوطا جيدا في الدكتوراه؛ واشتهر محل المأكولات السورية، "داريا"، وهذا هو اسمه؛ ودر على "نهيلة" خيرا كثيرا فابتاعت الشقة التي فوقه. احتجت بعض المال لأجدد سيارتي فطلبته من "نهيلة". أخبرتني أنها لا تمتلك هذا المبلغ الآن؛ وأن السيولة كلها في المحل. عرضت عليّ إصلاح السيارة ورفع كفاءتها كحل مؤقت.

توجهت إلى عملي في الصباح ومعي "البالطو" الأبيض. كنت قد أرسلته مع بنت البواب إلى محل التنظيف. حين هممت بارتدائه وجدت خطابا في جيبه عبارة عن كشف حساب بنكي يخص "نهيلة". عرفت منه أن لديها مالا كثيرا!

عقدت الدهشة لساني. كيف أتى هذا الخطاب إلى هنا؟!! هل يمكن أن يكون ساعي البريد قد ناوله للبواب وأن الأخير قد وضعه في جيب "البالطو" ثم نسى إخباري به؟ ربما... على أي حال، ليس ذلك هو الموضوع الآن.

لقد أظهر الخطاب كذب "نهيلة"؛ ولابد أن يكون لي معها وقفة حاسمة. رحت أذرع غرفتي بالمستشفى ذهابا وجيئة وأنا أفكر في الخطاب وإنكار "نهيلة" أن لديها كل هذا المبلغ الوفير. لقد مزقت نتيجة التحليل لأني لا أريد أن تتشوه علاقتنا؛ ولأني أريد أن أصدقها، لكنها الآن بكذبها تجدد هواجسي وآلامي ومعاناتي.

واجهت "نهيلة" بالأمر فقالت أن المال يخص "إيميسا"؛ وأنها وصية عليه. أحسست أنها بدأت تتكلم عن أملاكها ومتاعها ومالها وذهبها وخرجت أنا من المعادلة. طلبت منها رأس المال الذي وضعته في المحل والأرباح فأنكرت ذلك متذرعة بأنني تزوجتها بدون مهر أو شبكة؛ وأن هذا المبلغ أقل حقوقها.

ذكرتها بالملابسات الني أحاطت بزواجنا. ذكرتها كيف وقفت بجوارها وقت الشدة؛ وكيف ترجتني ألا أطلقها بعد حادثة الاستراحة. أخبرتني أنها ردت الجميل وانتشلتني من اليأس والضياع بعد طلاقي من زوجتي الأولى وأعادتني إلى الحياة.

شاهدت طلاقي الثاني في الأفق. هجرت الشقة لبضع أيام أقمت خلالها في أحد الفنادق. لم تسع "نهيلة" خلال هذه الفترة للحديث معي أو تطييب

خاطري. أدركت أنني كنت مطية لها إلى مصر وحسب، وقد نجحت فيما خططت له.

عندما عدت إلى الشقة وجدت أنها أخذت أغراضها وبنتها وانتقلت للإقامة في شقتها الجديدة. فهمت الرسالة فطلقتها في صمت واستعوضت الله في مالي وأيامي معها. على أي حال لقد طلقتها نفسيا وعاطفيا قبل أن أطلقها عند المأذون. لم أكن أتخيل أبدا أن الطمع يجعل الإنسان يتنكر لمن وقف بجانبه. زلزلت الصدمة كياني، وجددت جروحي القديمة.

اتصلت بـ"تُندي" وحكيت لها عن أحوالي البائسة. شجعتني على النهوض من عثرتي. أخبرتها برغبتي في بيع الشقة لأني لا أقوى على العيش فيها، ولحاجتي إلى المال. قالت أنها ستتوجه إلى السفارة المصرية في "بودابست" وتستصدر توكيل لي بالتصرف وترسله بالبريد المسجل. كان أبي قد كتب الشقة لكلينا قبل وفاته لأن أمي لا ترثه. أوصتني أن أحتفظ بأوراقها وبصورة المرأة المتشحة بالسواد.

- هل حقا يا "تُندي" أن هذه الصورة لممثلة مجرية هاجرت للولايات المتحدة؟
- من قال لك ذلك؟!
- "برينا".
- كلا... ليس صحيح.

- لمن هذه الصورة إذن يا أمي؟!
- الآن فقط سوف أخبرك.
- حقا ستفعلين يا "تُندي"؟!
- نعم... هذه "الكونتيسة "جويدان"، ملكة مصر. كانت جدتي لأمي في خدمة عائلتها.
- ملكة مصر؟!

انقطع الخط قبل أن أحصل على معلومات أكثر من أمي عن "جويدان" تلك، لكن لا بأس... لقد أعطتني الخيط وسوف تتكفل الشبكة العنكبوتية بالباقي. أخيرا سوف يسقط القناع عن هذه المرأة التي تقبع في ردهة منزلنا لما يقرب من ثلاثين سنة. من الواضح أن أمي هي من أحضرت الصورة إذن. لا بد أن هذه الكونتيسة التي تسكن بيتنا جنية؛ وأنها إحدى صديقات أمي.

قرأت يوما عن الكونتيسة "عيشة" أو "عيشة كونديشة" كما أسماها البرتغاليون. تنحدر هذه المرأة من عائلة "موريسكية" أندلسية. عاشت هناك في القرن الخامس عشر وتعاونت مع الجيش المغربي آنذاك في محاربة البرتغاليين. أظهرت مهارة وشجاعة في القتال حتى ظن البعض أنها ليست بشرا وإنما جنية.

تقول "الوكيبيديا" أن "الكونتيسة جويدان" مجرية مثل أمي واسمها الحقيقي "ماريانا=MARIANNA TOROK". ولدت عام ١٨٧٧م. تعرف عليها الأمير "عباس حلمي الثاني" ابن الخديوي "توفيق" حين كان يدرس في "الترزينوم=THERESIANUM" مع أخيها بالنمسا. حين أصبح عباس خديوي مصر تزوج "الكونتيسة" المجرية التي اعتنقت الإسلام وأصبح اسمها "جويدان=DJAVIDAN".

عاشت "جويدان" في سعادة مع عباس. كانت متحررة وترافق الخديوي كلما أمكن ذلك. لم يدم زاوجهما طويلا. انتهت قصة الحب الكبيرة بالطلاق عام ١٩١٣ بسبب اعتراض والدة الخديوي، أمينة إلهامي، والسلطان العثماني على هذه العلاقة. قيل أيضا أن عباس وقع في حب امرأة أخرى قابلها في باريس.

كانت "جويدان" مولعة بحب عباس. كتبت له يوما: "من ذا الذي يزعم أن الجماد لا روح فيه؟! تحتفظ الأشياء بنبض الحياة وتتفنن في إعادة إنتاج الحكايات. كم من حلم جميل أستعيده بين هذه الوسائد الحريرية! كنا هنا جالسين أمام المدفأة؛ وكنت أنظر إلى نارها المتقدة عوضا عن وجهك ذلك لأنك تملأ ذاتي وكياني."

"**أمس انتهينا**"(١)

"جويدان" إذن هي المرأة التي بحث عنها الخديوي عباس وأبي وكل العاشقين. "جويدان" إذن هي المرأة التي تريدني أمي أن أشرع في البحث عنها. "جويدان" إذن هي "رادوبيس" و"سندريلا" و"ميار" والأنثى التي تاهت مني

كما تاهت حواء من آدم. الغريب أن يجد الناس شقائقهم في الماضي بحذاء من الزجاج أو الجلد الأحمر أو خاتم أو ندبة أو شامة أو وحمة في الجسم أو خلافه بينما ضللت أنا الطريق في زمن الإنترنت والمحمول ونظام التوقيع الأرضي.

أعادت أمي المكالمة بعد أسبوعين لتطمئن على سير الأمور. أخبرتها أن كل شيء على ما يرام. سأسافر إلى "فيينا" في زيارة لصرحها الطبي المشهور: ALLGEMEINES KRANKENHAS DER STADT WIEN وحضور دورة قصيرة في طب الحالات الحرجة. أعرف الكثير من الألمانية. شجعتني أمي التي تتحدث بها بطلاقة على اختيارها كلغة ثانية في دراستي؛ وأرسلتني المدرسة لأمضي عطلة الصيف مع عائلة ألمانية ضمن برنامج التبادل الطلابي.

طلبت مني "تُندي" أن آت لزيارتها في "بودابست" فوعدتها بذلك. أخبرتها أني أنوي عقب عودتي بيع الشقة والتقدم بأجازة بدون راتب من جديد، ثم الالتحاق بمنظمة أطباء بلا حدود؛ فلم أعد أطيق الحياة هنا بعد زيجتين فاشلتين. شعرت بالرغبة في تغيير حياتي وإلقاء هذا الماضي الثقيل وراء ظهري.

- ما زال أمامك فرصة أخرى؛ تقولون في مصر أن "الثالثة ثابتة".
- تلك كانت الثالثة يا "تُندي"... أنت لا تعرفين شيئا.
- أنا أعرف كل شيء. أتكلم عن العلاقات الناضجة. عن الزواج.
- نعم يا "تُندي"، لكني لا أستطيع تكرار التجربة.
- ابحث.

- باللّه عليك كُفي عن ترديد هذه الكلمة يا "تُندي".
- لم تتعلم الدرس بعد.
- اسمعي يا "تُندي"... لنغير الموضوع... أوراقك في الحفظ والصون.
- شكرا لك.
- هل أرسلهم لك.
- كلا... احتفظ بهم حتى نلتقي.
- آه... بالمناسبة... أريد أن أستفسر منك عن شيء يا "تُندي"، أرجوك لا تغضبي.
- وما هو؟
- وأنا أجمع أوراقك وقعت عيني بالصدفة على صورة ضوئية باهتة لشهادة ميلاد "برينا".
- ثم؟
- تعرفين أني لا أقرأ المجرية، لكن حروف اسم الأم تبدو لي أكثر من حروف اسمك. هل لك كنية؟! أو هل غيرت اسمك؟!
- ولماذا أفعل ذلك؟!
- يعني... لقد قلت أن "برينا" أختي...
- من قال لك أنها أختك؟!

- أنت.
- لم أفعل.
- بلى... قلتي أنها ابنتك.
- نعم... هي ابنة زوجي الأول وبنتي بالتبني.
- ها قد عدت لألعابك القديمة يا "تُندي"!
- ماذا تقول؟
- لا شيء.
- ألم أقل لك أنني لن أكف يوما عن مفاجئتك.
- وكيف حالها يا أمي؟ هل عادت إلى خطيبها؟
- اعتادا الخصام والتصالح، لكن الجفوة طالت بينهما هذه المرة.
- وهل تعيش معك يا "تُندي"، أو قريبا من "بودابست"؟
- لا... إنها تعمل في محمية بحيرة "فيرتو=FERTO" على الحدود النمساوية. أظن أنها أخبرتك بهذا من قبل.
- نعم... نعم... تذكرت الآن.
- هل تريد هاتفها.
- لا بأس.

كانت هذه المعلومة مفيدة جد بالنسبة لي. المسافة بين "فيينا" وهذه المنطقة ليست كبيرة. ربما استطعت زيارتها في طريقي إلى "بودابست". لمعت أمامي صورة "فيينا"، هذه المدينة الرائعة، وتردد في أذني صوت "أسمهان" الملائكي وهي تغني لها وتصفها بأنها روضة من الجنة؛ وابتسمت وأنا أفكر في "برينا" وجسمها الأبيض الشهي.



(١) قصيدة لبشارة الخوري غنتها فيروز.

الفصل الثَّالث عشر

حزمت حقيبتي وبها أوراق أمي وصورة "جويدان" وطرت إلى "فيينا". أمضيت الأسبوع الأول أتجول على ضفاف نهر "الدانوب"، أو "نهر العواصم" كما يُسمى، أو أجلس على المقاهي محاولا ترتيب أفكاري. "فيينا" أو النمسا بالأحرى بلد الموسيقى والفن والحكايات.

من هذه الحكايات أن أصل كلمة "النمسا" هو اللفظة التركية "نوم سا" أي "الشعب النائم" ذلك لأن العثمانيين راودهم شعور بأن جلة سكان "فيينا" كانوا نائمين حين حاولوا اختراق أسوارها المنيعة التي استعصت عليهم. شرع العثمانيون في حفر نفق تحت الأرض تصادف أن مر بالقرب من أحد المخابز. سمع الخباز ليلا نقرا منتظما ومستمرا في باطن الأرض فبادر بالتوجه إلى قصر الحاكم وإطلاعه على الأمر؛ مما ساهم في إنقاذ "فيينا" ودحر العثمانيين. صنع الرجل خبزا على هيئة "هلال" يلتهمه أهل المدينة يوميا ليتذكروا مع إشراقة

كل شمس أنهم يقضمون رمز العثمانيين؛ وأنهم ممتنون للخباز الذي أنقذ المدينة. يُعرف هذا الخبز الآن بـ "الكرواسون".

توجهت بعد انتهاء مهمتي إلى "شوبرون=SOPRON" على الحدود النمساوية المجرية، المدينة التي مهدت لسقوط سور برلين عام ١٩٨٩م حين فر مئات الألمان الشرقيين عبرها إلى النمسا. تشتهر هذه المدينة أيضا بإنتاج الخمور. يبدو أن هذا أحد الأسباب لإقامة "برينا" فيها.

خالطني شعور غريب وأنا عند نقطة التماس بين الحدود النمساوية والمجرية. فكرت أن أتصل بـ "برينا"، لكني عدلت عن هذه الفكرة. شعرت أني أسير إلى قدري المحتوم تماما كـ "أوديب "حين قدم "طيبة". هل يطرح عليّ "سفنكس" نفس الأحجية؟ وإذا فعل هل أستطيع حلها رغم أني أعرف الإجابة؟

لم يكن هناك مشكلة في عبوري إلى الحدود المجرية. كنت قد استصدرت كافة الأوراق المطلوبة. لدي ما يثبت أيضا أن أمي مجرية، لكني لم اضطر للخوض عن هذا الأمر.

مضيت إلى الأراضي المجرية وأنا أسأل نفسي "هل ما أفعله صوابا؟!" إذا كُنت أحببت "برينا" فهو لا شك صواب، بل الصواب بعينه. "الحب أعمى" كما يقولون؛ ومجنون أيضا.

اتجهت نحو المحمية حيث تعيش "برينا". كان منظر البحيرة خلابا بنباتاتها وطيورها. طرقت الباب فلم يرد أحد. شعرت باليأس. خرجت لي إحدى الجارات سائلة بالمجرية:

- هل تريد "برينا"؟

لم أعقب. تفرست المرأة في ملامحي وأدركت أني قد أكون غريبا. كررت السؤال بالألمانية ففهمت الرسالة.

- نعم.
- لقد ذهبت للتسوق في البلدة. لن تتأخر. عادة ما تعود في هذا الوقت.

خلعت الحقيبة التي أثقلت ظهري وجلست على عتبة الباب أنتظرها. استعرضت شريط حياتي فرأيت أبي وهو يقرأ جريدته و"تُندي" وهي تترجم حكايات من المجر للعربية بمساعدة أبي. نشرت هذا الكتاب في "القاهرة" ونال استحسانا كبيرا. رأيت "ميار"، أول من دق لها قلبي. تنهدت بحسرة حين عرج خيالي على "دلال" و"نهيلة".

مضت دقائق وأنا أتطلع في المكان حتى لاحت سيارة "برينا". دق قلبي بشدة، ولم استطع السيطرة على مشاعري. نزلت "برينا" من السيارة وهى تحمل مشترياتها. توجهت إليها قائلا:

- هل تريدين المساعدة؟

- "مصطفى"... غير معقول. أكاد لا أصدق نفسي. كيف وصلت إلى هنا؟!

عانقتني وقبلتني فتذكرت المرة الأولى التي رأيتها في مطار "برج العرب". نفس الشعور لم يتغير، لكن هذه المرة أخذت راحتي في احتواء صدرها الجميل دون الشعور بعقدة الذنب. وقفت أحدق فيها ولسان حالي يردد مع "فاروق جويدة": ... ولو خيرت في وطن لقلت هواك أوطاني... إذا ما ضعت في درب ففي عينيك عنواني.

ناولتني خمورها وبعض من أغراضها وهى تكرر:

- كيف وصلت إلى هنا؟!
- هذه قصة طويلة.
- ستحكيها لي كلها، أليس كذلك؟
- أجل.
- كنت أعلم أنك ستأتي.
- حقا؟!
- إحساسي لا يخيب أبدا. لقد كنت أنتظرك.
- ماذا تقصدين؟!
- لماذا عضضت صدري ونحن في "الإسكندرية"؟!
- ماذا؟!

- أنا أشرب الخمر، لكني لا أفقد الوعي.
- تقصدين؟!
- نعم... لقد كنت في وعي تماما، وأحسست بك وأنت تعبث بجسمي.
- ثم؟!
- تمنيت أن تفعل ما هو أكثر من ذلك.
- حقا؟
- لقد شعرت أنا أيضا بانجذاب فظيع ناحيتك.
- كان هذا نفس إحساسي.
- لم تركت الفراش إذن؟
- هذه قصة أخرى سوف أحكيها لك.
- لديك الكثير من المفاجآت لي؟
- نعم، لكني كنت أود السؤال عن خطيبك.
- تقصد صديقي؟
- أجل.
- إنه من أصول صربية... شخص غير سوي. يثير دائما المشاكل معي. أخبرته بشكل حاسم وقاطع أن ما بيننا قد انتهى.
- جيد.

- وماذا عن زوجتك؟ عرفت من "تُندي" انك تزوجت.

- نعم... تزوجت مرتين؛ وكلاهما انتهى بالفشل.

- حقا؟!

- أجل.

- إذن فلديك قصتين أخريين لتحكيهما لي. أنا متشوقة لسماع صوتك.

- وأنا أيضا يا "برينا".

أخرجت من جيب معطفي خاتما ذهبيا عليه "مفتاح الحياة" كنت قد ابتعته لها من "الإسكندرية". ألبستها الخاتم وأنا أحكي لها عن قصة هذا الرمز الفرعوني؛ ثم نظرت إليها بحب واشتهاء. قبلتني وعانقتها. ظلت الجارة تنظر إلينا. ولجنا داخل الشقة. أعددنا الطعام وأكلنا معا وشاهدنا التلفاز. كانت شهوتنا متأججة، لكن ظللنا نؤجلها حتى المساء.

قررت أن أطلب منها الزواج. لا يوجد ما يمنع زواجنا الآن بعد أن أيقنت أنها ليست أختي. تكبرني بعامين، لكن ليس هذا أمرا مهما. بشيء من العزيمة يمكنها الإقلاع عن معاقرة الخمر أو التقليل من احتسائه. وصحيح أنها ليست بكرا، لكني لم أتزوج بعذراء من قبل.

- "برينا"... هل يمكن أن نتزوج.

- نتزوج؟!

- نعم نذهب للسفارة المصرية في "بودابست" ونُنهي الأمر.
- وما الداعي للعجلة؟ لنُمهل أنفسنا بعض الوقت حتى يزداد معرفة كل منا بالآخر.
- يعني... طالما قلت أنك كنت تنتظريني.
- أجل... عنيت ذلك، لكن السفارة والأوراق... ما كل هذه الإجراءات؟!
- يعني... التوثيق... الشهود.
- الكون كله يشهد علينا.
- لا تريدين الارتباط بي؟
- لقد ارتبطنا بالفعل.
- أقصد بشكل رسمي.
- لا بأس. لم لا؟ إذا كانت تلك رغبتك. أعرف أن هذه الأمور معقدة عند الشرقيين... سأسألك سؤالا إذا أجبت عليه فسوف أتزوجك.
- ليس هذا وقت المزاح يا "برينا".
- ومن قال أني أمزح؟
- أنت ثملة الآن. لنُرجأ هذا الأمر للصباح.
- قلت لك يا "مصطفى" أني لا أفقد الوعي.

- حسن ما هو السؤال؟
- لماذا لم يولد المسيح في المجر؟
- مممم... لأنه ولد في فلسطين.
- لا.
- حسن لماذا؟
- لأنهم لم يجدوا عذراء في المجر... ههههه... ههههه... ههههه.

ضحكت من قلبي حتى كدت أقع على الأرض. نبهتها إلى أن أمي كانت عذراء قبل أن تتزوج من أبيها. صمتت لبرهة ثم علقت قائلة:

- دون والدي في يومياته أن "تُندي" بلا رحم.
- ماذا؟!
- أقصد أنها أجرت عملية جراحية وأزالت الرحم.
- ما هذه الخرافات!
- لا أدري... هذا ما كتبه أبي. أحتفظ بمذكراته في بيتنا بـ "بودابست" حتى الآن.
- ماذا كتب؟
- أنها لا تحيض ولا تلد.
- لم يكن لائقا أن تقولي ذلك.

- أنا آسفة.

- لا شك أن والدك كان مخطئا.

- ربما... لا عليك... ربما خط ذلك حين اشتدت عليه وطأة المرض.

- حسن... هذا يفسر كل شيء.

شردت لنصف دقيقة أو يزيد وأنا أفكر في كلام زوج أمي الأول. هذا الكلام يثبت أن "برينا" ليست أختي، لكنه ينفي بنوة أمي لي. هذا غير معقول. من أين أتت بي "تُندي" إن لم تكن أمي؟!

- ما بك؟ لماذا هذا الوجوم؟

- لا شيء.

- ألا تريد السؤال الثاني؟

- بلى.

- ما هي "القبلة المجرية"؟

- هذه غير القبلة الفرنسية؟

- نعم... ومختلفة تماما.

- لا أعرف... سؤال آخر؟

- السؤال الثالث... فرصتك الأخيرة.

- هلم به.

- كيف تقول "أحبك" بالمجرية.

أعرف هذه الكلمة. تعلمتها من أمي. نظرت إلى عيني "برينا" وأنا أقول لها "سيهريتليك=SZERETLEK". أحست "برينا" أن حروفها خرجت من قلبي لا من فمي. شعرت بصدق الكلمة فارتمت في حضني.

- نعم... أريد أن أتزوجك.
- أتعرفين أن طعم فمك يشبه طعم فم أمي؟
- حقا؟
- وهل قلت لك أن رائحتك تذكرني برائحتها؟

رفعت "برينا" رأسها وأخذت تقبلني.

- أهذه هي القبلة المجرية
- لا ... تعال سأريك.

أطفئت شوق البحث الطويل في "برينا" حتى الخيوط الأولى من الصباح. حين أوشكت على القذف أخذت مائي كله في فمها ثم قبلتني مجترة جزءا منه في فمي. كدت أتقيأ، لكني تذكرت أمي حين كانت تلعق الزبادي من على فمي بلسانها؛ ثم تقبلني كما تفعل الطيور. هذه هي إذن القبلة المجرية. ما أجملها من قبلة!



الفصل الرَّابع عشر

كانت عطلة نهاية الأسبوع أجمل ما عشت من أيام حياتي. عاد لي هذان النهدان المرتفعان المنتصبان فنمت بينهما، لكن هذه المرة دون خوف أو تردد. أحسست أني أسرق السعادة. أحسست أني أعيش في لوحة رعوية "باستورية=PASTORAL" كالتي كانت توضع في غرف الضيوف.

خرجنا معا إلى المحمية. أرتني "برينا" أوكار الطيور وجحور الثعابين وأنواعا متعددة من النباتات. أتحفتني بمعلومات مذهلة عن الحيوانات والحشرات.

عرفت منها أن الفيل إذا مات وهو واقف فإنه يظل على هذا الوضع لبضع ساعات قبل أن يسقط تماما مثلما حدث لسيدنا سليمان. عرفت منها أن رأس الثعبان المبتور يستطيع اللدغ لمدة نصف ساعة من قطعه. عرفت منها أن النعامة تظل قادرة على التكاثر حتى سن الخمسين. عرفت منها أن

الحصان يموت إذا قُطع ذيله؛ وأن العقرب يلسع نفسه إذا أحاطت به النيران...

في مكان مرتفع نسبيا وجدنا جديا يعاشر ماعزا. ظللنا نراقبهما في صمت. نظرت إليّ "برينا" ثم ابتسمت قائلة:

- هل قلت لك أنك رقيق في الفراش؟
- لا.
- هذه حقيقة. تراعي احتياجات من معك وتشعرها أنها امرأة.
- حقا؟
- نعم... لست أنانيا على الإطلاق.
- هذا جيد.
- وتعرف الملاحة عبر جسد المرأة.
- يسرني سماع ذلك.
- هل تحب الممارسة في الخلاء.
- مثل الجدي... لا أظن أن هذه فكرة صائبة.
- أنت جديي الصغير.

قالتها بالمجرية فلم أفهم شيئا، لكني حين طلبت منها إعادة الجملة اكتشفت أن الجدي الصغير في المجرية يُسمى "GIDA". لابد وأن هذه الكلمة

من أصول عربية؛ والأرجح أنها دخلت المجر مع العثمانيين. اللغة المجرية غريبة حقا وشديدة الصعوبة. لم تُفلح أمي أبدا في تعليمي شيئا منها.

- يتحتم عليك تعلم المجرية إذا قررت المكوث هنا؟
- ولماذا لا تعودين أنت معي إلى مصر.
- مكثت بها فترة طويلة.
- تُسمين سبعة أيام فترة طويلة!
- أظنك قلت أنك لا تطيق العيش بها؛ وأنك تريد أن تبدأ في مكان آخر.
- نعم... كل ما أحتاجه فقط هو الحصول على الدكتوراه وبيع أغراضي. كنت أفكر في الالتحاق بمنظمة "أطباء بلا حدود"، لكنك يا "برينا" قد أصبحت الآن وطني وحدودي.
- يمكننا الذهاب إلى كليات الطب في "بودابست". ربما استطعت نقل دراستك هنا والحصول على عمل. أمك مجرية ومن حقك أن تحصل على الجنسية.

وعند هذا الحد انتهى حديثنا. توسدنا العشب الأخضر الكثيف والتحفنا السماء لبعض الوقت. لعبنا الحجلة والغماية. كان العقاب الذي قررته "برينا" لمن يعثر على مكان اختباء الآخر هو الصفع على مؤخرته العارية.

فزت في كل الجولات، لكني خسرت أمامها في لعبة "السودوكو". شيء عجيب... لم يحدث أن تفوق عليّ أحد في هذه اللعبة سوى "تُندي".

صنعت لها نايا من الغاب. تسلقنا الأشجار؛ وركبنا الدراجات لمسافات طويلة. دخلنا بعض الكهوف التي ذكرتني بالمعابد الفرعونية المنحوتة في الصخر. زرنا أيضا قصر "ESZTERHAZA" المعروف بـ"فرساي المجر"؛ والذي عزف فيه "جوزيف هادين".

لم نكف عن تبادل القبلات في القصر الذي يحتوي على مائة وستة وعشرين حجرة. وددت لو تخلفت أنا و"برينا" عن المجموعة وبتنا ليلتنا في القصر بمفردنا. وددت لو نمت مع معها في كل غرفة من غرفه. كانت فرحتي بها لا تصفها الكلمات. أخرجت هاتفي وأخذت لها صورة أمام بوابة القصر.

انتهت عطلة نهاية الأسبوع وعادت "برينا" إلى العمل. انتظرت إيابها للمنزل بفارغ الصبر. خرجت للصيد في البحيرة فتذكرت حين كنت أذهب للصيد في بحيرة "مريوط". جلست أصطاد وأنا أردد مع "فريد" كلمات أغنية "مين يعرف؟... مين يعرف إيه مكتوب لي معاك؟... مين يعرف إيه حظي أنا وياك؟"

حالفني الحظ فعدت للبيت بعدد وافر من الأسماك. قررت أن أعد "صينية". وقفت أنا و"برينا" في حجرة الطهي نجهز الطعام. قالت لي أنه بإمكانها فعل أي شيء إلا تقشير البصل. وقع في يدها حبة طماطم مشقوقة على نحو يوحي بأنها مؤخرة امرأة. نظرنا إليها ثم التقت عيوننا وانفجرنا في

الضحك. ذكرتني بمؤخرة "برينا" التي احمرت من الصفع حين كنا نلعب الغماية.

جلسنا بعد تناول الطعام نشرب القهوة ونقرأ لمدة نصف ساعة كعادة "برينا". كانت تقرأ رواية عنوانها "أبناء وعشاق" لكاتب إنجليزي يُدعى د. ه. لورانس، أما أنا ففتشت في كتبها لعلي أجد شيئا شيقا فلم أجد سوى مسرحية "عطيل" لشكسبير. جلست أتصنع القراءة وأنا أختلس النظرات إلى شفتي "برينا" وهي تتمتم بحروف الكلمات.

"برينا" امرأة مذهلة. تفعل كل شيء في حياتها بضمير: الأكل والتنظيف، والغسيل، والجنس. عندما أكون بداخلها أشعر أني اقفز كالحصان خارج اللامحدود؛ أشعر أني مركز الكون ومحور الأرض وأهم شيء في الوجود؛ وعندما أخرج منها أنكمش فلا أمثل في حيز الفراغ إلا مقدار الهواء الذي أزيحه.

الطبيعة تكره الفراغ؛ وأنا أكره الخواء العقلي والعاطفي. كيف نجحت "برينا" في أن تمنحني كل ذلك؟! كيف نجحت في أن تحولني من ظل الأشياء إلى جوهرها؟! كيف جعلتني أقبل على الحياة من جديد؟! كيف ضمدت الجرح وجبرت الكسر في بضع أيام، بل قل ساعات؟!

هذه امرأة غير عادية. تمتلك قدرة عجيبة على إفراز الحب. يمكنها أن تجعلك تحب أكثر الأشياء قبحا لو أرادت. قل لي عن أبغض شيء لديك وانظر كيف يمكن أن تجعلك "برينا" تحبه: تقشير البيض مثلا عندما تكون

القشرة ملتصقة؛ قص أظافر قدميك عندما يكون لك بطنا كبيرة؛ إزالة العلكة حين تلتصق بشعرك؛ صوت جرس المنبه حين تكون في حلم جميل؛ عثورك على شعرة في الحساء؛ دخول إبرة الحياكة في إصبعك وأنت تخيط جواربك؛... ماذا أيضا يمكنك أن تضيف؟

تتعامل مع الأشياء ببساطة ودون عصبية. لا تحب الصدام. إيجابية... تفكر دائما في اتجاه الحل لا في المشاكل. حليمة إلى أبعد الحدود؛ لا تستسلم للغضب ولا للضيق. أصبحت كلمة السر في حياتي "برينا". أحببتها من أعماق وجداني؛ وأحببت أن يكون وجهها آخر ما أرى كل يوم قبل أن أنام.

بعد مرور خمسة أيام كنت آخذ حماما دافئا وأفكر في أبي وقصة زواجه في المجر التي أوشكت على إعادة إنتاجها. انتبهت من شرودي على صوت شجار وتكسير أشياء في الردهة. تدثرت بسرعة وخرجت على وجل لأرى ما الأمر؟!

وجدت "برينا" مضرجة في دمائها، ووجدت رجلا ينظر إليّ شزرا. كان خطيبها السابق. يبدو أنه علم بوجودي فجاء يطلب منها أن تعود إليه. رفضت "برينا" لأنه على حد قولها "همجي وعنصري وعدواني". أخبرتني من قبل أنه أيضا سادي ويمارس معها الجنس الشرجي بعنف. حاولت "برينا" طرده خارج المنزل فدفعها الفحل بكلتا يديه فاصطدمت رأسها بالسياج الحديدي للمدفئة.

انطلق الرجل عدوا نحو البحيرة. وقفت كعادتي لا أعرف كيف أتصرف؟! كان يجب أن أفعل شيئا. لابد أن أكون إيجابيا ولو لمرة واحدة في حياتي. "برينا" تضيع مني.

اتصلت بالإسعاف وعدوت خلف الرجل شبه عاري. أدركته عند شاطئ البحيرة. حاولت أن أوقفه، لكنه ضربني بقطعة من الحطب والشرر يتطاير من عينيه ولسان حاله يقول: "أنت لا تعلم أن صربي واحد أشعل الحرب العالمية الأولى. ما الذي أتى بك إلى هنا أيها العربي القذر؟! خذ هذه فوق أم رأسك وعد إلى حظيرة الشرق الأوسط التي خرجت منها."

سقطت على الأرض فاقدا للوعي. أحسست أن التراب ينهال عليّ. أفقت من صدمتي لأجد نفسي على سرير بإحدى مستشفيات البلدة. كان رأسي ملفوف بالقطن والشاش وأمامي صورة للقديسة "إليزابيث الهنجارية" وبجواري "تُندي" في ملابس قاتمة.

- لا تقولي يا تندي أن مكروها أصاب "برينا"؟
- "برينا" بخير يا بني، لكنها ليست هنا.
- أين هي؟
- في مكان آخر.
- أين؟

لم ترد أمي. عرفت ما تقصد. تأكد ظني حين جاء المحقق ليستجوبني. قبضوا على صديق "برينا" وأودعوه السجن. خمسة أيام هي كل ما حصلت عليه من سعادة في حضن برينا. أحسست أني ذلك الشخص الذي اعتاد البابليون اختياره في عيد "السكايا=SACAEA"، فينصبونه ملكا زائفا لمدة خمسة أيام يحظى خلالها بالنعيم؛ بعدها يجردونه من ملابسه، ويُنزلون به أشد أنواع العذاب حتى يلقى حتفه!

رحلت "برينا" ورحل معها آخر ما تبقى لي من أمل في هذه الحياة. ملأت الدموع أيامي من جديد. دموع... دموع... دموع. متى سأكف عن البكاء؟!

❀❀❀

الفصل الخامس عشر

في اليوم التالي وقبل موعد الزيارة أحضرت الشرطة حقيبة ظهري وسلمتها لي في المستشفى. فتحت الحقيبة وأخرجت منها أشياء تندي وصورة "جويدان"، لكن بروازها كان محطما. سقطت إحدى الحوافظ على الأرض وتبعثرت محتوياتها: أوراق وخرطوش فرعوني وجعران ولعبة "اليويو" التي ابتاعتها لي أمي وأنا بعد صغير...

تحاملت على نفسي ونزلت من على الفراش لأجمعها وكلي ثقة أنها مجموعة من الأحراز والتعاويذ والتمائم. اقشعر جسمي وتسمرت قدماي حين وجدت القلب "الكريستال" الأحمر الذي أهديته لـ "ميار"! جلست على أرضية الغرفة ورحت أفحصه في ذهول.

"نعم ... إنه هو، لكن كيف أتى إلى هنا؟!" أمسكت به وأنا غير مصدق. فقدت القدرة على الاندهاش؛ شعرت أني أحلم؛ وبدأت أشك أني موجود أصلا.

أنكرت وجودي والزمن الذي يمضي حولي والأماكن التي أعرفها. لابد أنني أشاهد عرضا سخيفا. بدأت أشك في أني مجنون أو ممسوس أو مريض نفسيا؟"

لماذا تقسو عليّ الأيام كل هذه القسوة؟ لماذا تلهو بي الأقدار على هذا النحو؟ لو أني زائد عن الحياة فلماذا لا أرحل من هنا في صمت؟ فهمت الآن لماذا انتحر "فان جوخ" و"هيمنجواي" و"مارلين مونرو" و"فيرجينيا وولف" وآخرين، لكن الانتحار ليس خيارا؛ وأنا أجبن من أن أقتل نفسي.

قررت أن أواجه أمي بكل شيء. قررت أن أبث لها هواجسي وظنوني. قررت أن أحسم معها هذه الأمور الملتبسة. قررت أن أبرأ "من الهوى ومن الجنون". أتت "تُندي" في موعد الزيارة. ناولتها الأوراق والصورة؛ ولم أنبس ببنت شفة، فأخذتهم في صمت!

خرجت بعد يومين من المستشفى. رافقت "تُندي" بالقطار إلى "بودابست". لم أتكلم نهائيا واكتفيت بالنظر عبر النافذة إلى المروج الخضراء فتارة أرى "برينا" تلهو بها وتارة أرى كائنا ضبابيا عجيبا يتشكل كالذي ظهر لـ "تشايكوفسكي" قبل أن يكتب "سيمفونيته" السادسة المحيرة.

فجأة انقلب المشهد أمامي فوجدت نفسي قافلا بالقطار إلى "الإسكندرية" وبجواري أبي. كنا عائدين من المنصورة بعد انتهاء إجراءات التحويل من كلية الطب هناك إلى طب "الإسكندرية". رأيت "ميار" تلهو على كوبري كفر الزيات المعدني وتغطس في النيل وتقفز بين أشجار الصفصاف. طارت من جديد ثم اقتربت من زجاج نافذة القطار وهي تُمسك ببخاخ دهان أحمر اللون فرسمت قلبا وكتبت حرف الـ M مضاعفا داخله كما فعلنا على صخور "الكورنيش" منذ سنوات مضت. سال الدهان من حدود الشكل فكأنه دما يقطر من قلبينا.

انقلب المشهد مرة ثالثة فوجدت "نهيلة" تجلس بين ساقي "دلال" المنفرجتين دائما كالزرافة. أخذت الأولى تلعق النقود المعدنية التي تخرج مشوبة بالدماء من فرج الأخيرة. كانت العملات مختلفة: ذهبية وفضية ونحاسية، مصرية وخليجية وأوروبية، قديمة وجديدة.

انقلب المشهد مرة أخيرة فوجدت نفسي ألعب "السودوكو" على زجاج النافذة؛ وأكتب الأرقام وأحركها بعيني. تشاجرت الأرقام فيما بينها وهي تحاول أن تخترق الزجاج لتظفر بي تماما كالحيوانات المنوية في سعيها نحو الحياة. مسك الواحد بالثمانية من حزامها حتى خنقها. تناطحت الثلاثة مع الاثنين. دارت الستة والتسعة في الهواء كصقرين في خضم عراكهما.

ظلت السبعة مترفعة... ذاك رقمي المفضل: سبعة أيام وسبع سنين عجاف، سبع سماوات وسبعة ألوان لقوس قزح؛ سبعة أقزام حول "سنووايت"

وسبع خطايا وسبع بحار يقطعها "سندباد"؛ سبعة أعمدة من الحكمة وعجائب الدنيا السبعة. سبعة أشخاص في حياتي: "تُندي" و"ميار" و"دلال" و"نهيلة" و"برينا" و... بل خمسة فقط، لا... بل ثلاثة، لا... لا... بل واحدة.

أشحت ببصري بعيدا عن النافذة. كانت "تندي" تنظف أظافرها. رفعت رأسها فالتقت عيوننا. ابتسمت لي وهي تقول:

- رقمي المفضل هو "التسعة".

لا تعليق...! أنت كل الأرقام يا أمي. أنت حاصل الجمع وناتج الضرب. أنت القسمة وأنت النصيب. أنت الطرح وأنت الحصاد. أنت الجذر وأنت الأصل. أنت "الألفا" و"الأوميجا". أنت المعاني والأشكال والحروف. أنت "ألفية بن مالك" و"بائية المتنبي" و"تائية ابن الفارض" و"نونية ابن زيدون" و"رائية عمر بن أبي ربيعة". أنت كل شيء.

وصلنا منزل أمي الذي ورثته عن زوجها الأول والذي تتقاسم ملكيته مع "برينا". نسيت عملي، بل والطب كله. لم أغادر المسكن مطلقا. شعرت أني فأر صغير سدوا عليه مكان دخوله فأصبح حبيس الغرفة؛ لا يدري كيف يخرج ولا يعرف ماذا يفعل؟!

أصلحت "تُندي" برواز صورة "جويدان" وأعادت تعليقها فوق المدفأة. عادت "جويدان" أو بالأحرى عادت صورتها إلى المجر. أما "جويدان" الحقيقية فقد باعت أدوات التجميل في "فيينا" ومثلت في "برلين". رسمت اللوحات

وعزفت البيانو وكتبت المسرحيات الإذاعية وامتهنت الترجمة حتى توفت عام ١٩٦٨ ودُفنت في مدينة "GRAZ" النمساوية بالقرب من الحدود المجرية.

بعد شهر أو يزيد ذهبت مع "تُندي" إلى جولة في "الدانوب" تحت ضغط وإصرار منها. سرت معها بلا مقاومة ويدي بجانبي ككلب "فيزلا=VIZSLA" مجري وضِع في رقبته طوق؛ أو كأسير يجر الحديد في قدميه أو كالمُنَوَم مغناطيسيا. أشارت إلى "الأكاديمية المجرية للعلوم" قائلة:

- هناك كان يدرس والدك... وهنا قابلته على صفحة النهر... هل تذكر توأمك؟

نظرت إلى أمي مستسلما، فاقدًا القدرة على الاندهاش. أكملت "تُندي" في أسى:

- ظننتك تذكره. ولدتكما في نهاية شهر ديسمبر من عام ١٩٨٤م. قالوا لي أن القارات الست كانت ترتقب نهاية العالم حسب نبؤه الكاتب الإنجليزي، "جورج أورويل" في روايته "١٩٨٤"، لكن شيئا لم يحدث. مات توأمك قبل أن يُكمل العامين. لا أذكر اسمه المصري الآن، لكني كنت أدعوه "يانكو". تركه أباك في السيارة ونزل يبتاع بعض الأغراض فعبث الصغير بالقداحة وانتهى الأمر. لم يسامح أباك نفسه حتى لفه الردى. مات في غرفته المغلقة تماما مثل "بارادميس"

في أوبرا "عايدة"، لكني رفضت أن أدفن نفسي معه بالحياة. أنت من بقى لي في هذه الدنيا. أنت لي... لا تضيع مني يا "مصطفى".

كانت هذه إحدى المرات القليلة التي دعتني أمي باسمي. أمالت رأسها على كتفي، ثم شرعت في الغناء:

I WILL DROP YOU IN THE DEEPEST OCEANS
BUT LIKE A MESSAGE IN A BOTTLE
YOU WILL SWIM TO MY SHORE
I WILL FLY YOU IN THE HIGHEST OF SKIES
BUT LIKE A HOMING PIGEON
YOU WILL LAND ON MY WINDOW
I WILL LET YOU LOOSE IN THE BUSIEST STREETS
BUT LIKE A DOMESTIC CAT
YOU WILL STRAY BACK TO MY DOOR (1)

سأقذف بك إلى أعماق المحيطات،
لكنك ستنتهي إلى شاطئي
كرسالة بحر.
سألقي بك إلى عنان السماوات،
لكنك ستحط على نافذتي
كحمامة زاجلة.
سأطلقك في أزحم الطرقات،

لكنك ستهيم وتعود لعتبة بابي
كقطة أليفة.

قبلت "تُندي" خدي. نظرت إليّ ولسان حالها يقول: "أنا فرحك وحزنك وقربك وبعدك ويقينك وشكك وحبك وكرهك وجنتك ونارك وشموخك وانكسارك..." بدأت قطرات المطر تسقط فوقنا على استحياء. أشارت أمي إلى أنه يجب علينا العودة لمرسى القوارب.

تذكرت "برينا" وكيف كنت ألهو معها تحت المطر بالمحمية. تذكرت الصورة التي التقطها لها أمام قصر "فرساي المجر" فأخرجت هاتفي لألقي نظرة عليها. كانت الصورة ما زالت موجودة، لكن "برينا" لم تكن بها. نعم... لقد كانت "تندي" هي من تقف أمام القصر! لا بأس... فقدت القدرة على الاندهاش كما قلت لكم. لتكن مشيئتك يا أمي.

وضعت الهاتف في جيبي ومددت يدي دون أن تشعر "تُندي" فأخرجت القلب "الكريستال" وتركته يسقط في "الدانوب" كما سقطت "إيزادورا" في النيل. أحسست أن المياه بالكامل قد خُضبت بلون القلوب. هطلت دموعي من جديد وتساقطت في مياه النهر ليحملها في جريانه إلى "بلجراد" و"سيليسترا" و"سولينا" وإلى حيث تعيش حبيبتي الجنية الصغيرة.

تمت.

---

(١) من قصيدة لـ "مروة رخا"

عن المؤلف:

- د / محمد السيد علي عزب
- أستاذ الأدب الإنجليزي "المنتدب" بكلية التربية، جامعة الإسكندرية.
- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

صدر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، ٢٠٠٧.
- Brush upon your English، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- Enhance your English vocabulary، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩
- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا "ترجمة"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير ٢٠١٠.
- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- اللغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.
- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.
- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.
- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.
- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥، آرائهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، ٢٠١١.
- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوي للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.
- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

تحت النشر:

- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها.